

ك. غ. يونغ

بين يهوه وأيوب

ترجمة : إيناس نبيل سليمان

دار الحوار


kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d
ك. غ. يونغ
بين يهوه وأيوب


ترجمة : إيناس نبيل سليمان

بين يهوه وأيوب

المؤلف: ك. غ. يونغ

المترجمة: إيناس نبيل سليمان

الطبعة الأولى: 3/ 2013

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الإنكليزي:
ANSWER TO JOB
by C. G. Jung
العنوان الأصلي للكتاب بالألمانية:
ANTWORT AUF HIOB
Arabic Transiation by: Inas Souleiman
ISBN: 978 – 9933 – 477 – 99 -8
تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار
دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: +963 41 422 339
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

إهـــــداء

إلى يونغ

لامستني صباح مساء.. خطوت معي صعاباً.. سهرنا سوية حتى طلع فجر "بين يهوه وأيوب":

أشكرك

إليك أيتها الأرواح الشفيفة

أعدتُ اكتشاف ذاتي بثقةٍ منحتِني إياها، ولم يعد لدي الآن ما أقوله سوى:

شكراً على الكثير

إيناس

مقدمة المحرر

يحتل كتاب "بين يهوه وأيوب" مكانة نادرة بين أعمال يونغ، فهو أكثر ما كتب يونغ عاطفية وجدلية في آنٍ معاً. ودونما ادعاءٍ بتصريحاتٍ علمية متزمتة، هو كتاب يتضمن التأملات الأكثر عمقاً، والناجمة عن شعورٍ مكثفٍ بالالتزام الداخلي. لقد كتب يونغ في واحدة من رسائله: "الحافز وراء كتابي هذا كان شعوراً ملحّاً ومتزايداً بالمسؤولية، وفي نهاية الأمر لم أتمكن من مقاومته" (1).

كان يونغ مدركاً تماماً للسمات الجدلية لأفكاره، وللعدائية التي ستوقظها حتماً، فقاوم كتابة المخطوط لأعوامٍ طويلة، إذ كان مدركاً لحجم العائق الذي قد يعنيه الكتاب للكثيرين، بمن فيهم من كان يحترم نظرياته غير التقليدية. لكن، عند كتابته لهذا المخطوط، شعر يونغ بأنه أداة لدى قوة تطغى عليه: "إن كانت الروح التي تقبض على الإنسان من عنقه موجودة حقاً، فهي الروح التي قبضت عليّ لكتابة هذا المخطوط"(2)

وفي الوقت ذاته، كان الكتاب عبارة عن جدل بالغ الذاتية والعاطفية بالنسبة ليونغ، إذ حاول من خلاله صياغة إجاباته عن أسئلة تتصل بالشر والغموض في الصورة الإلهية بوجهيها: المشرق والمظلم معاً، وهي مسائل شغلت تفكير يونغ طيلة حياته. بمعنىً ما، فإن هذا الكتاب هو محاولة لتجربة شخصية مكثّفة ينشد يونغ من خلالها التصالح مع هذا الإله المتناقض الذي سمح بأن يصبح خادمه المطيع أيوب مادة للرهان مع الشيطان، وسمح بالمعاناة غير المحكية لملايين البشر في زمان عاشه يونغ.

وفي رسالته إلى هـ. شار والمؤرخة بـ 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1951 كتب يونغ: "كان لزاماً عليّ تحرير ذاتي (...)، إذا أمكنني قول هذا، لأتمكن من إيجاد ذلك الانسجام في ذاتي والذي ينشده الله من خلال الإنسان. الأمر يشبه رؤيا سمعان، اللاهوتي، الذي بحث عن الله في كل مكان في العالم بلا جدوى، إلى أن أشرق الله مثل شمسٍ صغيرة داخل قلبه."

من هذا الجانب من المسؤولية العميقة، والبحث العاطفي عن الحقيقة، تتوجب مقاربة وفهم هذا الكتاب، فقراءته بهكذا وعي ستكشف عن قيمته الكاملة.

حزيران/يونيو 1972

غيرهارد أدلر

تمهيد

نُشر كتاب بين أيوب ويهوه Antwort auf Hiob أول مرة في زيوريخ عام 1952، عندما كان يونغ في السابعة والسبعين. وأول ترجمة له نُشرت في لندن في عام 1954 لـ آر. إف. سي. هال R. F. C. Hull. وبعد انقضاء عامين، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، قام نادي كتاب "باستورالسيكولوجي"Pastoral Psychology Book Club بإعادة نشر الكتاب. كتب يونغ في دورية نادي باستوراك سيكولوجي تعليقاً على الكتاب، ثم أضيف هذا التعليق كمقدمة عندما جُمعت أعمال يونغ الكاملة، وصدر الكتاب في الجزء الحادي عشر من أعمال يونغ الكاملة عام 1958(3). كما نشرت ميريديان بوكس Meridian Books في عام 1960 نسخة من الكتاب بغلاف ورقي.

يتقدم السيد هال بالشكر إلى الدكتور جايمس كيرش من لوس أنجلس لتزويده بترجمته الخاصة من كتاب بين أيوب ويهوه، ولتقديمه المساعدة من خلال النقد البنّاء أثناء نقاشاتهما الخاصة. لقد قرأ البروفيسور يونغ ترجمة هال للموافقة قبل النشر، و"كان بغاية اللطف لتوضيح بعض النقاط الجدلية بصبر غير محدود وحس دعابة جيد."

مقدمة

وضعني الاقتراح القائل بأن أتحدث إليكم كيف ظهر كتاب (بين أيوب ويهوه) إلى النور أمام مهمة بالغة الصعوبة، إذ لا يمكن الحديث عن تاريخ هذا الكتاب ببضع كلمات، فمشكلته الأساسية شغلتني لسنواتٍ مديدة، وغذّت مصادر عديدة فيض الأفكار فيه. إلى أن جاء ذاك اليوم، وذلك بعد تأمّل طويل، حيث نضجت فيه الأفكار، وجاء وقت سكبها بكلماتٍ مكتوبة.

يمكن إيجاد السبب الأكثر مباشرة لكتابتي هذا المؤلَّف متضمناً في مشكلات معيّنة تناولها كتابي Aion، بخاصة تلك المتصلة بالمسيح كشخصية رمزية وبالعداوة المسيحية ـ والمسيحية المضادة، والمتمثلة بالرمزية الفلكية التقليدية للسمكتين.

وفيما يتعلق بالنقاش حول هاتين القضيتين وعقيدة خلاص البشرية، فقد انتقدتُ فكرة "غياب الخير" كوني لا أتفق مع نتائج البحث السيكولوجية. فالتجربة السيكولوجية تُظهر أن ما نطلق عليه اسم "الخير" هو مساوٍ تماماً لـ "الشر" أو"الإثم". وإن لم يكن "الشر" قائماً فلا بد أن يكون الموجود هو "الخير". وبشكل دوغمائي، فلا "الخير" أو "الشر" يأتيان من الإنسان، نظراً لوجود "الشرير" بزمن طويل قبل وجود الإنسان على أنه أحد "أبناء الله".

بدأت فكرة "غياب الخير" بلعب دورها في الكنيسة فقط بعد ماني(4) Mani، وقبل هذه البدعة كان البابا "كليمنت الأول" يلقّن في تعاليمه أن الله يحكم العالم بيمناه ويسراه، ويمناه هي المسيح بذاته، أما يسراه فهي الشيطان. من الجليّ أن فكرة كليمنت توحيدية بما أنها توحد ما بين الأضاد بإله واحد.

في حين أن المسيحية في المراحل اللاحقة أصبحت ثنائية، كونها قسمت النصف الأول من النقيضين، وجسدته بالشيطان الأبديّ بحالته الملعونة. يشكّل السؤال الأساسي عن ماهيّة مصدر الشر لحظةَ الانفصال في النظرية المسيحية حول خلاص البشرية، وهي بذلك ذات أهمية كبرى. فإذا كانت المسيحية تدعي بأنها توحيدية، فسوف يصبح من غير الممكن تفادي افتراض أن كينونة النقيضين تجتمع في الله. لكن في هذه الحالة سوف تواجهنا مشكلات دينية أساسية مثل مشكلة أيوب. يهدف كتابي هذا للإشارة إلى التطور التاريخي منذ زمن أيوب على مر القرون وصولاً إلى الظواهر الرمزية الأكثر حداثة، مثل انتقال العذراء، إلخ..

علاوة على ذلك، فإن دراسة الفلسفة الطبيعية في القرون الوسطى، وهي الأكثر أهمية بالنسبة للسيكولوجي، قد جعلتني أحاول إيجاد إجابة على السؤال: "كيف كانت الصورة التي رأى بها أولئك الفلاسفة الإله؟" أو بمعنى آخر: "كيف يجب أن تُفهم الرموز التي أُلحقت بصورة الإله؟" كل هذا دلّ على توليفة الأضداد، وبالتالي أعاد قصة أيوب إلى ذهني: كان أيوب يتوقع من الإله أن يساعده ضد الإله. هذه هي الحقيقة الأكثر غرابة والتي تفترض مسبقاً فكرة مشابهة عن التناقض لدى الإله.

ومن جهة أخرى، استدعت أسئلة لا حصر لها، ولم تتأتَ فقط من مرضاي بل من العالم بأسره، قضية إعطاء إجابة أكثر اكتمالاً ووضوحاً مما قمت بطرحه في كتابي Aion. لقد ترددتُ لسنواتٍ عديدة في القيام بهذا، لأني كنتُ مدركاً تماماً للتبعات المحتملة، وعرفتُ حجم العاصفة التي

سأثيرها هنا. لكن ضرورة وصعوبة المشكلة كانت قد قبضت علي، ولم أكن قادراً على التخلص منها. وهكذا فقد وجدتُ نفسي مضطراً للتعامل مع المشكلة بأسرها، مدفوعاً بمشاعر ذاتية. وقد اخترت هذه الصيغة عن عمد، إذ كنتُ راغباً بتجنب إعطاء الانطباع بأن فكرتي هنا هي الإعلان عن "حقيقة أبدية". لا يدّعي هذا الكتاب أنه أي شيء آخر سوى صوت أو سؤال من فرد يأمل أو يتوقع أن يجد الاهتمام من العامة.

القراء المحترمين

تطلّب مني هذا الكتاب، بمحتواه غير المعتاد، التمهيد له بمقدمة قصيرة، أدعوك قارئي العزيز لعدم إهمالها، لأنني سأتناول فيما يلي أموراً عظيمة الشأن، ذات صلة مباشرة بالمعتقد الديني. وبمعزل عن ماهيّة الشخص الذي يتناول مسائل الدين، فلا مفرّ أمامه من المخاطرة بمهاجمته من قبل فريقين يتصارعان بشدة حول هذه الموضوعات.

يعود هذا الصراع إلى الافتراض الغريب بأن الأشياء لا تصبح حقيقية إلاّ عندما تطرح ذواتها على أنها حقيقة فيزيائية. وهكذا فإن بعض الأشخاص مقتنعين بحقيقة فيزيائية تقول بأن المسيح هو ابن السيدة العذراء، بينما ينكر آخرون هذه الاستحالة الفيزيائية للولادة من عذراء. من الجلي أن ليس هناك حل منطقي لهذا الخلاف، ومن الخير عدم الخوض في جدالات بيزنطية كهذه.

كلا الفريقين على صواب، وكلاهما على خطأ، ومع ذلك فبإمكانهما الوصول بكل سهولة إلى اتفاق، لو أنهما يطرحان كلمة "فيزيائي" جانباً، فالمعيار "الفيزيائي" ليس هو المعيار الوحيد للحقيقة، فهنالك أيضاً من الحقائق الفيزيائية ما لا يمكن تفسيره أو إثباته أو نقضه فيزيائياً. فمثلاً، لو ساد اعتقاد بأن نهر الراين يجري بشكل معاكس من مصبّه إلى منبعه، لكان أصبح هذا الاعتقاد حقيقة بحد ذاته، وإن كان لا يُصدَّق بمعناه الفيزيائي. إن اعتقادات كهذه هي حقائق أو وقائع لا يمكن نقضها، ولا تحتاج إلى برهان.

الإبانات الدينية هي أيضاً من هذا النمط، فهي تشير دون استثناء إلى أشياء لا يمكن التأسيس لها كحقائق فيزيائية. ولو لم تقدر على فعل ذلك، لصارت ضمن نطاق العلوم الطبيعية. وإن نحن حاولنا ردها إلى أصول فيزيائية، فسوف تفقد معناها بالمطلق، وسيرفضها العلم كونها غير مثبتة بالتجربة. وستكون مجرد معجزات، معرّضة بصورة كبيرة للتشكيك بها، فضلاً عن عجزها عن إثبات حقيقة الروح أو المعنى الذي تنطوي عليه، فالمعنى هو أمر تكشّف بذاته، وتمت تجربته بما فيه من خصائص.

إن روح المسيح ومعناه ماثلان أمامنا، حتى دون عون المعجزات. فالمعجزات تروق فقط لفهم أولئك الذين ليس بإمكانهم القبض على المعنى، فهي مجرد بدائل لعدم فهم حقيقة الروح. وهذا لا ينفي القول بأن الحضور الحي للروح لا يترافق أحياناً مع وقائع فيزيائية مذهلة. أرغب فقط بالتوكيد على أنه لا يمكن استبدال هذه الوقائع، كما لا يمكن لها أن تمدنا بفهم لماهية المعنى، وهي الأمر الأساسي الوحيد.

يبرهن التعارض بين الإبانات الدينية والظواهر الفيزيائية المرئية، على أن الروح، وخلافاً للمفهوم الفيزيائي، هي عنصر مستقل بذاته، وعلى أن التجربة السيكولوجية مستقلة إلى حد ما عن البيانات الفيزيائية. فالنفس عامل مستقل بحد ذاته، والإبانات الدينية اعترافات سيكولوجية، وهي كملجأ أخير، مبنية على اللاوعي، أي على الماورائيات والمنهجيات. هذه المنهجيات لا يطالها الإدراك، لكنها توضّح وجودها من خلال الاعترافات بالنفس. وتتم فلترة الإبانات الناتجة من خلال وسيط هو الوعي الإنساني، وهذا ما يعني أنها تُعطى أشكالاً مرئية، والتي تكون بدورها عرضة إلى تأثيرات

متنوعة من الداخل ومن الخارج. وهذا ما يفسّر تحوّلنا إلى عالم من صور تشير إلى شيء ما مقدس، حالما نتحدث عن المحتوى الديني. ونحن لا نعلم مدى وضوح أو غموض تلك الصور والاستعارات والمفهومات قياساً إلى موضوعها الماورائي. فمثلاً، إذا لفظنا كلمة "الله" فإننا نعبر عن صورة أو فكرة لفظية تعرّضت إلى الكثير من التغييرات عبر الأزمان. ومع ذلك فنحن غير قادرين على القول، وبدرجة ما من اليقين ـ ما لم يكن ذلك إيماناً ـ إن كانت هذه التغييرات قد أثرت على الصور والمفهومات فقط، أم أنها أصابت "القدسي" أيضاً. ومع ذلك بإمكاننا تصور الله على أنه طاقة أبدية حيوية متدفقة، يتغير شكلها إلى ما لانهاية، بذات السهولة التي تمكّننا من تصوّره جوهراً أبدياً ساكناً لا يتغير. إننا واثقون بأمر واحد فحسب: هو، أن عقلنا قادر على التلاعب بالصور والأفكار التي تعتمد على المخيلة البشرية وأحوالها المؤقتة والموضعية، والتي تغيرت، بناء على ذلك، مرات لا نهائية على مدى تاريخها الطويل.

وما من شك في أن هنالك أمراً ما وراء هذه الصور، يفوق اللاوعي، ويشتغل بتلك الطريقة التي لا تتفاوت فيها العبارات بشكل غير محدود، أو عشوائي، لكنها ترتبط جميعها بشكل واضح ببضعة مبادئ أساسية، أو نماذج بدْئية. هذه النماذج البدئية، مثل النفس أو المادة، لا يمكن معرفتها كما هي. وكل ما نستطيعه فعله حيالها هو صياغة نماذج عنها، نعلم أنها غير ملائمة، وهي حقيقة تؤكدها الإبانات الدينية مرة إثر مرة.

وإن كنتُ، تبعاً لذلك، أشغل نفسي بهذه الموضوعات المتيافيزيقية، فإنني أدرك تماماً أني أتحرك في عالم من الصور، وأن أياً من أفكاري لن تتمكن من لمس جوهر "المجهول": كما أنني مدركٌ تماماً لمحدودية قدراتنا الذهنية، ناهيك عن هزال وفقر اللغة، على تخيل معنى أبعد لملاحظاتي هذه، مما يعنيه إنسان بدائي عندما يتصور إلهه كأرنب أو أفعى.

لكن، على الرغم من أن عالم أفكارنا الدينية بأكمله يتألف من صور مجسمة غير قادرة على الثبات أمام النقد العقلاني، يجب علينا التذكّر باستمرار أن هذه الأفكار تستند إلى نماذج بدئية مقدسة، أي إنها مستندة على أساس عاطفي لا يمكن للعقل معاداته. نحن نتعامل مع وقائع سيكولوجية قد يغفل عنها العقل، لكنه لا يستطيع استبعادها. وبهذا المعنى، فإن ترتوليان(5) كان محقاً في استجابته لشهادة الروح حين قال:

"شهادات الروح هذه بسيطة بقدر ما هي حقيقية، واضحة بقدر ما هي بسيطة، شائعة بقدر ما هي واضحة، طبيعية بقدر ما هي شائعة، إلهية بقدر ما هي طبيعية. أعتقد أنها لا يمكن أن تبدو تافهة أو سخيفة لمن يتفكر بجلال الطبيعة التي تستمد منها الروح سلطتها. وما تسمح به للمعلّمة، سوف تعزوه إلى التلميذة. الطبيعة هي المعلّمة، والروح هي التلميذة. وما علّمته إحداهما، أو تعلّمته الأخرى، جاء من عند الله، وهو بالحقيقة المعلم حتى للمعلمة ذاتها. وكل فكرة تكوّنها الروح عن معلمها الأول، لك أن تطلق عليها حكماً ينبع من الروح التي بداخلك. فاشعر بذاك الذي جعلك تشعر، وتفكّر بنبيّك في الشدائد، وبشيرك في النعم، وناظركَ عندما تلمّ بك الملمات. ويا للغرابة إذا ما عرفتْ كيف تلعب دور العرافة لدى البشر، وهذا ما منحها الله إياه. ومن الغرابة أيضاً أن تعرفه على أنه مانحها**!"**

سأتقدم هنا خطوة إلى الأمام، وأقول إن الإبانات التي اشتملت عليها الأسفار المقدسة، هي أيضاً ما نطقت به الروح، وذلك على الرغم مما ينطوي عليه هذا القول من المخاطرة بأن يشتبه بإخضاع

الدين لعلم النفس. يمكن لتعابير العقل الواعي بسهولة أن تكون أفخاخاً أو أوهاماً أو أكاذيب، أو آراء اعتباطية، ولكن الأمر يختلف تماماً عندما يتعلق بتعابير الروح، فهي تعبُر دوماً فوق رؤوسنا لأنها تشير إلى حقائق تعلو فوق الوعي. إن هذه الكيانات هي نماذج بدئية في اللاوعي الجمعي، وتحفّز مركّبات من الأفكار على شكل أفكار أسطورية. والأفكار التي من هذا النوع لا نخترعها أبداً، بل هي تدخل إلى ميدان الإدراك الباطني على أنها منتجات مكتملة، كما يحدث في الأحلام، مثلاً. وهي ظواهر تلقائية غير خاضعة لإرادتنا؛ ونحن بذلك نمتلك الحق بأن ننسب إليها بعض الاستقلالية، فلا نعتبرها مجرد أشياء، بل هي ذوات أيضاً، ولها قوانينها الخاصة بها. ومن منطلق الوعي، فبمقدورنا، بالطبع، أن نوصّفها كـ "موضوعات"، بل بإمكاننا تفسيرها إلى الدرجة ذاتها التي نوصّف أو نشرح بها عن البشر. لكن عندئذٍ، يجب أن نتجاهل استقلاليتها. وإذا ما تم ذلك، فسنضطر للتعامل معها على أنها ذوات. وبعبارة أخرى، سنضطر إلى التسليم بأن لها تلقائية وقصدية، أو نوعاً من الوعي والإرادة الحرة، فنراقب سلوكها ونأخذ تعابيرها بعين الاعتبار. هذا الموقف المزدوج الذي نحن مضطرون إلى تبنيه حيال كل كائن مستقل نسبياً، لابد أن تكون له نتيجة مزدوجة أيضاً: فهو، من جهة، يُعلمنا بما نفعله بالموضوع، ومن جهة أخرى يُعلمنا بما قد يفعله هو بنا. ومن الواضح أن هذه الازدواجية المحتومة تخلق قدراً من الارتباك في عقول قرّائي، خصوصاً أننا سنتناول فيما يلي نماذج بدئية للألوهة.

إذا شعر أي من قرّائي بالغواية لإضافة "استثناءً" اعتذارياً إلى صور الإله بحسب فهمنا لها، فهو بذلك سوف يرتكب خطأً بالتجربة التي تبرهن بما لا يقبل الشك ألوهية هذه الصور. ليست الفعالية الهائلة أو (المانا) لهذه الصور هي فقط ما تمنحنا إياه من إحساس بإشارتها إلى "النفس العليا"، بل هي تجعلنا مقتنعين بأنها تعبّر عنه حقاً، وتبعاً لذلك نسلّم بأنها حقيقة. وهذا ما يجعل الحديث صعباً على نحو غير اعتيادي، إن لم يجعله مستحيلاً، فمن المتعذر علينا الاستدلال على حقيقة الله بعيداً عن هذه الصور التي أُنتجت بصورة عفوية، أو قدستها التقاليد. وهي صور لم يستطع عقل الإنسان الساذج أن يفصل صيغتها وآثارها النفسية، عن أساسها الميتافيزيقي المجهول. فهو، في التو، يساوي ما بين الصورة الفعّالة، والمجهول الإلهي الذي تشير إليه. ويبدو المبرر الظاهر لهذا الإجراء بيّناً بحد ذاته، ولا يُعتبر إشكالياً طالما أن الإبانات الدينية لم تُطرح للنقاش بشكل جاد. لكن إذا ما حانت الفرصة للنقد، فلا بد حينها من أن نتذكر أن الصورة والإبانة هما إجراءان نفسيان يختلفان عن موضوعهما الإلهي. فهما تختلفان عنه، ولا تزيدان عن كونهما إشاراتٍ إليه، أما في مجال السياقات النفسية فإن النقد والنقاش ليسا مشروعين فحسب، بل لا مفر منهما.

سوف أحاول فيما يلي أن أقدم فقط بحثاً، كما لو أنه "وصولٌ إلى تفاهم" فيما يرتبط بأفكار وتقاليد دينية بعينها. وبما أنني سوف أعالج عوامل إلهية، فإن كلاً من مشاعري وأفكاري قد واجهت التحديات. ولذلك لم أتمكن من الكتابة بطريقة موضوعية باردة، بل توجب علي إفساح المجال أمام ذاتي العاطفية لتتكلم إن كنت أريد أن أصف ما أشعر به، حين أقرأ بعضاً من أسفار الكتاب المقدس، أو حين أتذكر الانطباعات التي تلقيتها عن عقيدتنا بالإيمان. شخصياً، أنا لا أكتب كما يفعل لاهوتي عن الكتاب المقدس (فأنا لستُ كذلك)، بل أكتب بصفتي طبيباً وعلمانياً حصل على فرصته بالرؤية العميقة في الحياة السيكولوجية لعدد كبير من الناس. وما أعبر عنه هو، قبل كل شيء، وجهة نظر خاصة بي، رغم معرفتي أيضاً بأني أتكلم باسم كثيرين ممن تعرضوا لتجارب مشابهة.

سفر أيوب

إن سفر أيوب هو من العلامات الفارقة في التطور التاريخي للدراما الإلهية. ففي وقت كانت تتم فيه كتابة هذا السفر، كان ثمة الكثير من الشهادات التي تدل على تناقضات صورة "يهوه"؛ وهي صورة إله لم يكن يعرف الاعتدال في انفعالاته، ولطالما عانى تحديداً من افتقاره لهذا الاعتدال. هذا الإله ذاته هو من اعترف بأن الحنق والغيرة كانا يأكلانه أكلاً، وكان إدراكه لهذه الحقيقة يؤلمه للغاية. لقد جمع هذا الإله ما بين نفاذ البصيرة والغباء، وما بين الرحمة والقسوة، وما بين القوى الخلاقة والقوى المدمرة. كان كل شيء موجوداً فيه، وما كانت واحدة من تلك الصفات عقبة في وجه الصفة الأخرى. ولا يمكن استيعاب مثل هذه الحالة، إلا عندما لا يوجد لدى متلقيها وعياً متفكّراً بالمطلق، أوعندما تكون قدرته على التفكّر واهية، أو أنها ظاهرة طارئة. وهذه حال لا يسعنا إلا أن نصفها بأنها غير أخلاقية.

لقد عرفنا كيف كان شعور أقوام "العهد القديم" حيال إلهها من خلال شهادة "الكتاب المقدس"، وهو ما لستُ بصدده هنا، بل بصدد الطريقة التي يمكن بها لإنسانٍ معاصر، ذي ثقافة مسيحية، أن يتآلف مع الظلمة الإلهية التي يتكشّف عنها سفر أيوب، وتأثيرها عليه. سوف لن أقدم هنا تفسيراً ملطفاً وحذراً ومنصفاً لكل تفصيل، إنما سأقدم فقط رد فعل ذاتي عفوي. وبأسلوبي هذا، أتمنى أن أكون قد عبّرت عن حال الكثيرين ممن تنتابهم ذات المشاعر التي تنتابني، وأن أكون قد عبّرت عن المشاعر الممزقة التي ينتجها لدينا المشهد الصريح للقساوة والوحشية الإلهيتين. وحتى إذا عرفنا، بمحض المصادفة، معاناة وتناقضات الإله، فإن معرفتنا غير واعية، ما يعني أنها غير مؤثرة أخلاقياً، وبالتالي فإنها لا تستثير التعاطف أو الفهم الإنساني. بل عوضاً عن ذلك فإنها تستثير فينا، بقدرٍ مساوٍ، بركاناً شعورياً مَرَضياً، واستياءاً متأججاً يمكن مقارنته بجرح يندمل ببطء. وكما لو أن هناك رابطاً خفياً بين الجرح والسلاح، كذلك يتوازى ذلك الشعور مع الفعل العنيف الذي أججه.

يصلح سفر أيوب ليكون نموذجاً على اختبار معين من الإله، وذي أهمية خاصة في يومنا الحاضر، كما قد يتعرض الإنسان لمثل هذه التجارب سواء من داخله أو من محيطه الخارجي. ومن غير المجدي تأويل هذه التجارب بشكل عقلاني، وبالتالي إضعافها بإلقاء التعاويذ. وهكذا فإنه من الأفضل، وإلى حدٍ بعيد، الاعتراف بذلك الشعور والخضوع إلى عنفه، على محاولة الهروب منه باستخدام كافة الحيل العقلانية والأحكام العاطفية. وعلى الرغم من أن الإنسان الذي يفسح المجال لذلك الشعور بالنيل منه، يقلّد كافة الصفات السيئة لفعل الحنق الذي استفز ذلك الشعور، وبالتالي يجعل من الشخص مذنباً بنفس الإثم. وهذه هي النقطة الأساسية لآلية السلوك بأسرها: إن فعل العنف يهدف إلى التغلغل في حياة الإنسان، وبالمقابل على الإنسان الخضوع لسلوك العنف. كذلك يجب على الإنسان التأثر بالعنف، وإلا فلن يصيبه أثره الكلي. لكن، يجب على الإنسان أن يعرف ما الذي أثّر به، أو أن يتعلم كيف يعرف ذلك. فبهذه الطريقة يحوّل الإنسان عمى العنف من جهة، وأثره فيه من جهة ثانية، إلى معرفة.

ولهذا السبب، سوف أعبّر فيما يلي عن شعوري دونما خوف، بل وبشراسة. وسوف أجابه الظلم بالظلم، لعلّي أعرف ما هي جراح أيوب، وماذا كانت الغاية منها، وما هي العواقب التي عادت بها

على "يهوه" وعلى الإنسان.

I

أيوب يجيب "يهوه" هكذا:

"ها أنا حقير فماذا أجاوبك؟

وضعتُ يدي على فمي.

مرةً تكلمت فلا أجيب

ومرتين فلا أزيد".(6)

والحق، أن هذا هو الجواب الوحيد الممكن أن يرد به شاهد لا يزال يرتجف رعباً مما قارب أن يكون إبادة كلّية، وذلك في سطوة الحضور المباشر لقوة الخلق اللا متناهية. والسؤال المنطقي في مثل هذه الحالة هو: ماذا كان بمقدور الدودة البشرية المتهالكة الزاحفة على التراب أن تفعل غير ذلك؟ وعلى الرغم من ضآلته وضعفه اللذين يستدران الشفقة، إلاّ أن هذا الإنسان عرف أنه في مواجهة كائن أسمى من البشر، ومن السهولة بمكان استفزازه. كما عرف أن من الخير له أن يتخلى عن جميع التأملات الأخلاقية، وأن لا يتحدث عن الالتزامات الأخلاقية التي يُتوقع من الإله شخصياً تطبيقها.

لطالما كانت "عدالة" يهوه معرضاً للثناء، لذلك من المفترض لأيوب أن يكون قادراً على التقدم بشكواه واحتجاجه والإعلان عن براءته أمام يهوه بصفته إلهاً عادلاً. لكنه يشكك في هذا الاحتمال:

"كيف يتبرر الإنسان عند الله؟"(7)

"لو دعوت فاستجاب لي لما آمنت بأنه

سمع صوتي."(8)

"وإن كان من جهة القضاء يقول من

يحاكمني؟"(9)

هو:

"يكثر روحي بلا سبب"(10)

"الكامل والشرير هو يفنيهما"(11)

"إذا قتل السوط بغتةً يستهزئ

بتجربة الأبرياء"(12)

يقول أيوب ليهوه:

"... عالماً أنك لا تبرئني"(13)

"ولو اغتسلت في الثلج ونظفت

يديّ بالأشنان، فإنك في النقع

تغمسني."(14)

"لأنه ليس هو إنساناً مثلي فأجاوبه

فنأتي جميعاً إلى المحاكمة."(15)

يريد أيوب أن يوضّح وجهة نظره ليهوه، وأن يعرض شكواه، فيقول له:

"في علمك أني لست مذنباً ولا منقذ من

يدك."(16)

"أريد أن أحاكَم إلى الله."(17)

"فقط أزكّي طريقي قدّامه."(18)

"أعلم أني أتبرر."(19)

وهنا كان على يهوه أن يستدعي أيوب، ليقدم له المبررات، أو على الأقل ليسمح له بالدفاع عن قضيته. ويُحسن أيوب تقدير حجمه كإنسان قياساً للإله، فإذ به يطرح سؤالاً:

"أترعب ورقة مندفعة وتطارد قشاً

يابساً؟"(20)

"ولكن الله ألقى التبعة عليه، والعدالة لا وجود

لها."(21)

لقد كان هو الله من:

"حيّ هو الله الذي نزع حقي..."(22)

"حتى أسلم الروح لا أعزل كمالي عني.

تمسكت ببرّي ولا أرخيه."(23)

أما صديقه، أليهو البوزيّ، فلا يصدّق أن يهوه ظالم فيقول:

"فحقاً أن الله لا يفعل سوءاً

والقدير لا يعرّج القضاء."(24)

كما أنه يبني رأيه على مقدرات الإله دون العودة إلى المنطق:

"أيقال للملك يا لئيم

وللندباء يا أشرار؟"(25)

على المرء:

"أن ي

الأعلين أكثر من الأدنين"(26)

لكن إيمان أيوب ما تزعزع، ونطق بالحقيقة المطلقة عندما قال:

"هو ذا في السموات شهيدي وشاهدي في

الأعالي...

الله تقطر عيني, لكي يحاكم الإنسان عند

الله كابن

آدم لدى صاحبه."(27)

وفي ما بعد يقول:

"أما أنا فقد علمت أن وليّي حيّ

والآخر على الأرض يقوم."(28)

تُظهر هذه الكلمات، وبكل جلاء، أن أيوب، وعلى الرغم من شكوكه فيما يتعلق بوجوب تبرير حضور الإنسان أمام الإله، يواجه صعوبة في الاقتناع بإمكانية الحضور أمام الإله على أساسٍ آخر غير العدل والأخلاق. إذ أنه، وعلى الرغم من كل شي، ليس قادراً على التخلي عن إيمانه بالعدالة الإلهية. كما ليس من السهل عليه قبول إدراك إمكانية خرق التعسف الإلهي للعدالة. لكن، ومن ناحية أخرى، كان عليه التسليم بأن ما من أحد يظلمه أو يقسو عليه سوى يهوه نفسه. وليس بإمكانه إنكار أنه يواجه إلهاً لا يكترث بأي مبدأ أخلاقي، ولا يعترف بالالتزامات الأخلاقية.

ولعلّ هذا كان أعظم ما في أيوب، فهو، وعلى الرغم من كافة الصعوبات التي يمر بها، لم يساوره ريب في وحدة الله. إنه يرى، وبوضوحٍ تام، أن لله تناقضاته، وهي تناقضات مطلقة، إلى الحد الذي يجعل أيوب موقناً أنه سيعينه ويدافع عنه أمام يهوه. وبنفس المقدار من اليقين بالشر الموجود لدى يهوه، فإن أيوب أيضاً موقن بوجود الخير. فنحن لا نتوقع أن نجد العون لدى كائن بشري أوقع بنا الأذى، لكن يهوه ليس بكائنٍ بشري، إنه المدّعي والمعين في آن معاً، وكل واحدة من هاتين الصفتين هي حقيقية بمقدار الصفة الأخرى. إن يهوه ليس عبارة عن انقسام، بل هو تناقض فحسب، إنه "كليّة" من التناقضات الداخلية، وهو الشرط الذي لا غنى عنه لديناميّته الهائلة، ولمعرفته وقدرته الكلّيتين. ونظراً لإدراك أيوب لهذه الحقيقة، فإنه يبقى مصرّاً على أن يدافع عن أساليبه أمامه، أي أن يوضح له وجهة نظره. لأن يهوه، وبصرف النظر عن سخطه وغضبه، هو عَوْنٌ للإنسان لمواجهة نفسه، إذا ما تقدم منه الإنسان شاكياً.

ولو كانت هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها عن الحياد الأخلاقي الذي يتصف به يهوه، لازددنا تعجباً من مدى معرفة أيوب بالله. لكننا نعرف منذ الأزل أن يهوه عرضة للنزوات ونوبات الغضب، فقد برهن سابقاً على أنه مدافعٌ غيورٌ عن الأخلاق عموماً، وحساسيته عالية فيما يتعلق بمفهوم العدل خصوصاً. ومن هنا كان يتلقى الثناء بصفته عادلاً، الأمر الذي كان يوليه أهمية خاصة. وبفضل هذه المعطيات، أو الخصوصيات، تميّزت شخصيته عن شخصيات الملوك القدامى. إن غيرته، وطبيعته النزقة، وارتيابه بالقلوب غير المؤمنة، واستكشاف أفكارهم الدفينة، كل هذا تراكم ليبني علاقة بينه وبين الإنسان الذي لم يتمكن من مقاومة إحساسه أن يهوه يستدعيه.

لقد كان هذا هو الفارق الأساسي بين يهوه والإله "زيوس" المتحكم الذي، وفي حالة من الخير والانفصال، سمح لنظام الكون أن يجري على عادته ويُنزل عقابه بالمفسدين فقط. إن زيوس لم يقدم المواعظ، وإنما حكم بطريقة فطرية بحتة. وهو لم يطلب من الإنسان أكثر من القرابين المتوجبة له، كما أنه لم يرغب بإقامة أي نوع من العلاقات مع البشر إذ لم يكن لديه خطة مسبقة بهذا الشأن. ومن المؤكد أن الإله زيوس كان رمزاً لا شخصية. بينما، من الجهة الأخرى، كان يهوه مهتماً بالإنسان، وكان البشر يحتلون المرتبة الأولى لديه. كان بحاجة إليهم بطريقة ملحّة وشخصية، تماماً كما كانوا هم بحاجة إليه. وزيوس أيضاً كان يُنزل عليهم الصواعق، لكنه كان يفعل ذلك فقط على البشر المتمردين الميؤوس منهم، أما فيما يتعلق ببقية الجنس البشري، فما كان لديه اعتراضات تُذكر. لكنه فيما بعد، لم يُبدِ اهتماماً كبيراً بهم. في حين كان يهوه يثور ثورة جامحة على البشر بصفتهم الجمعية، أو الفردية، إذا لم يسلكوا سلوكاً يرضى عنه. طبعاً لم يكن يهوه يأخذ بعين الاعتبار أن يقوم، بصفته كلي القدرة، بخلق نسخة محسّنة من هذه المخلوقات الأرضية السيئة.

وبالنظر إلى ارتباطه الشخصي الوثيق بشعبه المختار، لم يكن ثمة بدّ من أن يعقد معهم ميثاقاً منتظماً، وأن يمتد هذا الميثاق أيضاً ليشمل أفراداً معينين مثل داوود، الذي قال له يهوه، كما نعلم ذلك من المزمور التاسع والثمانين:

"إلى الدهر أحفظ له رحمتي.

وعهدي يثبّت له.

لا أنقض عهدي،

ولا أغيّر ما خرج من شفتيّ

مرة حلفت بقدسي

إني لا أكذب لداود:"(29)

ومع ذلك فقد حنثَ باليمين، وهو الذي لطالما حرص بغيرةٍ على تطبيق القوانين والوفاء بالعهود. في حين أحسّ الإنسان الحديث، وبحساسية وعيه العالية، بأن هاويةً سوداء قد فغرت فاهها أمامه، ومادت الأرض تحت قدميه. فأقل ما يتوقعه هو أن يكون إلهه أسمى من الإنسان الفاني، بمعنى أن يتفوق عليه بكينونته، ويكون أسمى وأنبل منه. لا أن يتفوق عليه بأخلاقه المرنة، أو لا يمكنه الاتكال عليه أو إثبات قوله حتى أمام هيئة محلفين.

وبالطبع، لا يمكننا محاسبة إلهٍ قديم بمقتضيات الواجبات الأخلاقية المعاصرة، إذ كانت الأشياء مختلفة بالنسبة لأقوام العصور القديمة. لقد كانت آلهتهم القديمة تمتلك كافة المواصفات: ففي تلك الآلهة كانت تتواءم الفضائل مع الرذائل، وتبعاً لذلك كان يمكن معاقبتها وتقييدها وخداعها واستعداء بعضها على بعض دونما خجل، أو على الأقل ليس لمدة طويلة. لقد اعتاد الإنسان في تلك الأزمان على التناقضات الإلهية، بل إنه لم يكن يقلق عندما تحدث تلك التناقضات. أما بالنسبة ليهوه فقد كان الأمر مختلفاً، إذ لعبت الرابطة الشخصية والأخلاقية منذ البداية دوراً كبيراً في العلاقة الدينية. وفي هذه الأحوال، لم يُحدث نقض العهد أذىً شخصياً وحسب، وإنما أخلاقياً أيضاً. ويمكن لنا معرفة ذلك في إجابة داوود ليهوه:

"حتى متى يا رب تختبئ كل

الاختباء؟

حتى متى يتقد كالنار

غضبك؟

أذكر كيف أنا زائل

إلى أي باطل خلقت جميع بني

آدم؟

أين مراحمك الأُوَل يا رب

التي حلفت بها لداود

بأمانتك؟"(30)

ولو كان هذا الحديث موجهاً إلى كائنٍ بشريٍ لكان الخطاب شيئاً من هذا القبيل:

كرمى لله يا هذا،

استجمع نفسك،

وأقلع عن هذه الوحشية التي لا معنى لها!

إنه لأمر مستغرب أن تكون ساخطاً إلى هذا الحد،

في حين أنك تتحمل جزءاً من المسؤولية،

لأن النباتات لم تثمر.

لطالما كنتَ منطقياً في رعايتك للحديقة التي زرعتها،

بدل أن تدوسها وتقضي عليها."

من المؤكد أن مُحاوِرُنا لم يكن ليجرؤ أبداً على الاعتراض على نظيره القدير، فيما يتعلق بنقضِه للعهد، إنه يعرف حق المعرفة أي نوع من الخصومة سيتورط بها، لو كان هو البائس الذي نقضَ العهد. ولأن أي شيء من هذا القبيل سوف يعرّض حياته للخطر، فما عليه سوى العودة إلى صوت العقل. وبهذه الطريقة، ودون معرفته أو إرادته، فإنه يتبدى متفوقاً على نظيره الإلهي على المستويين العقلي والأخلاقي. ولا ينجح يهوه في ملاحظة أن الإنسان يتملقه، كما أنه لا ينجح في فهم الأسباب التي تستوجب، وعلى الدوام، امتداحه بصفته عادلاً. فهو يلح في الطلب من أتباعه أن يمتدحوه ويستعطفوه بكافة الوسائل الممكنة، وصولاً إلى الهدف الجليّ في المحافظة على مزاجه الحسن مهما كان الثمن.

إن الشخصية التي تتكشف عن مواصفات كهذه، يمكنها إقناع نفسها أنها موجودة فقط عبر ارتباطها بهدفٍ ما، هذه التبعية للهدف هي مطلقة عندما يكون الشخص ـ التابع يفتقر تماماً للتأمل الداخلي،

وبالتالي لا يكون قادراً على اكتشاف ذاته. يبدو الأمر وكأنه موجود فقط بموجب حقيقة أن ليس لديه هدف يؤكد له أنه موجود هناك حقاً.

لو كان يهوه واعياً لذاته حقاً، كما نتوقع من كائن بشري حساس أن يكون، لكان بالحدّ الأدنى، ونظراً للحقائق الواقعية لتلك الحالة، وضع حداً لمدائح عدالته. لكنه كان لاواعياً للغاية ليكون أخلاقياً، في حين أن الأخلاقيات تستلزم وجود الوعي. وبهذا لا أقصد القول إن يهوه غير كامل أو شرير، كإله الغنوصيين(31) المادي. بل هو كل شيء في كينونته الكلّية، ولذلك فإنه، من بين أشياءٍ أخرى، عدالة كلية ونقيضها الكلي في آنٍ معاً. أو على الأقل، هذه هي الطريقة التي ينبغي أن نفهمه بها إذا أردنا رسم صورة متكاملة له. ويجب علينا فقط أن نتذكر أن الصورة التي رسمناها له ليست سوى صورة مجسمة ليس من السهل تصوّرها.

ومن الطريقة التي تعبّر بها الطبيعة الإلهية عن نفسها، بإمكاننا أن نفهم أن صفاتها الفردية لا ترتبط ببعضها البعض بصورة كافية، فتأتي النتيجة على شكل أفعالٍ متناقضةٍ بالتبادل. فمثلاً، يندم يهوه على أنه خلق الإنسان، مع أنه، ومن خلال معرفته الكلية، كان يجب عليه معرفة ما سوف يتأتى عن ذلك.

II

لما كان "العليم" قادراً على سبر أغوار جميع القلوب، وأعين يهوه "تجول في الأرض كلها"([32])، أفما كان الأَوْلى بمنشد المزمور التاسع والثمانين ألاّ يبالغ في إدراكه بتفوّقه الأخلاقي الطفيف على الإله الذي كان أقل وعياً منه؟ لقد كان من الأفضل أن لا يكشف عن ذلك، إذ أن يهوه لا يحبّذ الأفكار الناقدة التي تنتقص من الاعتراف الذي يطالب بالحصول عليه. وعلى العكس من قدراته المدويّة في الكون، فإن أساس وجوده هزيل، فهو يحتاج إلى التفكير الواعي حتى يصبح شيئاً موجوداً في الواقع. فالكينونة لا تصبح حقيقية إلاّ بعد أن يعيها شخص ما. وهذا ما يفسر لنا لماذا يحتاج "الخالق" إلى الإنسان الواعي، على الرغم من أنه، وبلا وعي محض منه، قد يمنعه من أن يصبح واعياً. وهذا ما يفسر لنا أيضاً حاجة يهوه إلى التزكية من مجموعة صغيرة من الناس. لعل بإمكان المرء أن يتصور ما الذي قد يحدث فيما لو قررت هذه المجموعة فجأة أن تتوقف عن التهليل، فقد تغمرها حالة من الحماس الشديد، والمصاحبة لانفجاراتٍ من الحنق الأعمى المدمّر، يليها انكفاءٌ إلى عزلة جهنمية، ومن ثم تعذيبٌ نتيجة لعدم الوجود، ليتبعه صحوة تدريجية لشوقٍ لا يوصف إلى شيء ما يجعله واعياً بذاته. ولعل هذا كان السبب في أن جميع الأشياء البدئية ذات جمال أخَّاذ، ومنها الإنسان نفسه قبل أن يصبح وغداً. لأن هذه الأشياء، في حالتها الوليدة، "وكل بحسب جنسه"، هي الشيء الأثمن، والأغضّ، والأكثر رغبة، كونها انعكاساً أو تجلياً لحب "الخالق" وطيبته اللامتناهيين.

بالنظر إلى الخوف المؤكد من الغضب الإلهي، وفي زمنٍ كان الإنسان فيه يعرف تماماً ما يعني بقوله: "اخشَ الله!"، كان من المتوقع أن يبقى تفوّق الإنسان الطفيف مخفياً في اللاوعي. فشخصية يهوه القوية، والتي تفتقر، بالإضافة إلى الكثير من الأشياء، إلى السيرية السابقة (فقد أصبحت صلته بإيلوهيم([33]) طي النسيان منذ زمن طويل)، هي ما رفعه إلى مكانة أسمى من بقية آلهة الأمم الوثنية، وحصّنته من التأثير الذي ظل لقرونٍ طويلة يقلل من شأن الآلهة الوثنية. إذ، وبالتحديد، كانت تفاصيل سِيَرِهمْ الأسطورية هي العدو الأول لهم، فقد نمت قدرات الإنسان العقلية على المحاكمة، وصار يرى أن هذه الأساطير غير مفهومة أو لائقة. في حين لم يكن ليهوه أصلٌ أو ماضٍ باستثناء خَلْقِهِ للعالم الذي ابتدأ به التاريخ كله، وعلاقته بذلك النوع البشري الذي يتحدّر من آدم الأب الأول، الذي كان قد شكّله بصورة تشبهه هي على شاكلة الإنسان الأول، الإنسان الأصلي، وهذا ما بدا فعلاً خَلقياً خاصاً.

وليس بإمكاننا سوى الافتراض أن المخلوقات البشرية الأخرى التي تواجدت في نفس الفترة الزمنية، أنها قد خُلقت في وقتٍ سابق على "المخزف الإلهي"، بالإضافة إلى مختلف أنواع البهيمة والأنعام، وتحديداً الكائنات البشرية التي اختار منها كل من قايين وشيث زوجته. وإذا لم نقبل بهذه الفرضية، فلن يبقى أمامنا إلا القول إنهما تزوجا من أختيهما سِفاحاً، وهو ما لا نجد عليه دليلاً في النص. وهذا ما خَلُصَ إليه الفيلسوف كارل لامبرخت([34]) في نهاية القرن التاسع عشر.

لقد كانت العناية الإلهية الخاصة التي اصطُفيَ بها اليهود دون الكائنات البشرية الإلهية، وجعلت منهم "شعباً مختاراً"، هي ذاتها ما أثقل كاهلهم منذ البداية بالتزام ثقيل. وكما يحدث عادةً حيال هذه

الالتزامات، فقد كان من الطبيعي أن يحاولوا الانفكاك من هذه الأعباء كلما سنحت لهم الفرصة. وبما أن الشعب المختار اغتنم كل فرصة للتفلّت من قبضة يهوه، وبما أن يهوه شعر بمدى أهمية توثيق علاقته بهذا الموضوع الحيوي والذي جعله "شبيهاً بالإله" لهذا الغرض تحديداً، فقد عرض على الأب نوح عهداً بينهما يعود بالفائدة على جميع الفرقاء: يهوه من جهة، ونوح وأبناؤه وكل حيواناتهم البرية والمدجّنة، من جهة.

ولتعزيز هذا العهد وإبقائه حياً في الأذهان، أنشأ يهوه "قوس قزح" ليكون علامةً على العهد. ففي المستقبل إذا ما استدعى غيوم الرعد التي تخفي في بطنها الطوفان والبرق، فسوف يظهر قوس قزح في السماء مذكّراً إياه وشعبه بالعهد. ونظراً للإغراء القوي بتسخير ذلك الركام من السحاب لأداء طوفانٍ تجريبي، فقد كانت فكرة اقترانه بعلامة تنذر بوقوع الكارثة فكرة جيدة.

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي تم اتخاذها، إلاّ أن ديفيد نقض العهد، وهو حَدَث خلّف وراءه تراكماً أدبياً على شكل أسفار مقدسة، كما أنه أحزن عدداً قليلاً من الأتقياء الذين أخذوا بالتأمل عقب قراءته. وفي حين كانت المزامير تُقرأ بحماسة بالغة، فقد كان محتماً أن لا يتمكن بعض الأشخاص المتفكّرين من هضم المزمور التاسع والثمانين. ومهما يكن من أمر، فقد بقي الأثر الكارثي الذي خلّفه نقض العهد حيّاً في النفوس(35). ومن المحتمل تاريخياً أن تكون هذه الاعتبارات قد تركت أثرها في مؤلف سفر أيوب.

يضع سفر أيوب هذا الإنسان التقي المؤمن الذي ابتلاه الله، على منصّة براقة الإضاءة، ليعرض قضيته أمام سمع العالم وبصره. ولعل من المدهش أن يسمح يهوه لنفسه، وتماماً من غير سبب، بالوقوع تحت تأثير أحد أبنائه، ولفكرة ريبية منه(36)، ليصبح متشككاً في إيمان أيوب به. لقد كان مجرد وجود احتمال بالشك، إضافة إلى حساسيته وريبته، يكفيان لإثارة غضبه، وحمله على اتّباع هذا المسلك المزدوج، علماً أنه سبق له تقديم الدليل على ازدواجية سلوكه من قبل في جنة عدن، عندما أشار للأبوين الأولين إلى الشجرة، وفي الوقت نفسه حرّم عليهما تذوق فاكهتها، ليكون بذلك قد حرّضهما على "السقوط"، وهو أمر ما كان يظهر أنه في نيّته قط.

وبصورة مشابهة، يتعرض عبده المخلص: أيوب، إلى امتحان أخلاقي صارم، بمنتهى المجّانية، ودونما هدف معين، وذلك على الرغم من اقتناع يهوه بإخلاص أيوب ووفائه. وكان باستطاعته الاطمئنان إلى هذا الأمر لو أنه استشار معرفته الكلية. إذن، لماذا وقع هذا الامتحان أصلاً؟ ولماذا يراهن يهوه مفترياً لا ضمير له، ودون وضع رهان أصلاً، على مخلوق لا حول له ولا قوة؟ حقاً إنه لمشهدٍ غير حضاريٍ أن نرى السرعة التي يتخلى بها يهوه عن عبده المؤمن، ليسلمه إلى الروح الشريرة، ويتركه يسقط في هاوية من المعاناة الجسدية والأخلاقية، دون إبداء ندم أو رأفة.

ومن وجهة نظر إنسانية، يبدو ما فعله يهوه مقززاً للغاية، إلى الحد الذي يجعلنا نتساءل عن الدافع الخفي الذي يختبئ وراء هذا الفعل. ترى هل يبدي يهوه نوعاً من المقاومة الخفية تجاه أيوب؟ سيكون هذا تفسيراً لاستسلامه للشيطان. لكن، ما الذي يملكه الإنسان ولا يملكه الله؟ فكما سبق لنا أن أشرنا، وبسبب ضآلة الإنسان وضعفه وعجزه أمام القادر، فإنه يمتلك وعياً أكثر حرصاً، مبنياً على التأمل الذاتي: إذ كي ينجو، يتوجب عليه أن يكون واعياً لعجزه على الدوام. في حين أن الإله ليس بحاجة إلى هذا الحذر، فهو لم ولن يواجه عقبة لا يمكنه تذليلها، ما يضطره إلى التردد، وبالتالي تأمل ذاته. ترى هل يكون يهوه قد ارتاب في احتمال امتلاك الإنسان نوراً خافتاً، لكنه أكثر

تكثيفاً مما يملكه هو ذاته؟ لعل غيرة من هذا النوع تفسر لنا سلوك يهوه. ويمكن فهم سلوك كهذا، لو أن انحرافاً بسيطاً، يمكن تفهمه، نجم عن المدعو مجرد "مخلوق"، وكان ذلك السلوك هو ما أثار الشكوك الإلهية. فكثيراً ما تنحرف هذه المخلوقات البشرية عن السلوك المحدد لها تماماً. وربما يكون أيضاً عبده المخلص أيوب يخفي شيئاً ما تحت أكمامه. وهكذا فقد كان يهوه مستعداً، وبشكل مفاجئ، للإصغاء إلى وساوس الشيطان حول حسن ظنه بعبده.

دون صخب تُسلب قطعان أيوبُ، ويقتل عبيدُهُ، ويفقد أبنائه وبناته في الإعصار، ثم يصاب بداء يوصله إلى حافة القبر. ولحرمانه من سلامه الكلي، يطلق كل من زوجته وأصدقاؤه القدامى افتراءاتهم ضده. ثم لا تجد شكواه المبررة أذناً صاغية لدى القاضي الذي لطالما مدح إنصافه. ولكي تستمر لعبة الشيطان، دون انقطاع في مجرياتها، يُرفض طلبه بإحقاق العدالة.

على المرء هنا ألا ينسى أن هذه الأفعال المجحفة قد وقعت على أيوب بالتتالي، واحدة إثر الأخرى: السلب ثم القتل ثم الأذى الجسدي عن سابق تصميم، ثم الحرمان من المحاكمة العادلة. وعلاوة على ذلك، لم يبدِ يهوه إزاءه ذرة ندم أو تأنيب ضمير أو تعاطف، بل أظهر منتهى القسوة والوحشية. وهنا لا يمكن قبول المحاججة بعدم وعي يهوه لما يحدث، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه ينقض، بشكل صارخ، على الأقل ثلاثاً من الوصايا التي نشرها هو، يهوه، في طور سيناء.

كذلك لا يوفر أصحاب أيوب جهدهم للمساهمة في عذاباته الأخلاقية، وعوضاً عن إعلانهم للتأييد الصريح لمن خذله الله غدراً، راحوا يطرحون الموضوع أخلاقياً وبأسلوب بشري مغالٍ، أي بأكثر الأشكال غباءً و"سكب المزيد من العيوب في شخص أيوب"، ليكونوا بذلك قد أنكروا عزاءه الأخير بإيجاد التعاطف والتفهّم الإنسانيين، وهنا لا يمكننا استبعاد شبهة التواطؤ من المقام العلوي.

أما لماذا تنقطع العذابات بصورة فجائية عن أيوب، وكذا ينتهي الرهان الإلهي، فأسباب ذلك غير واضحة تماماً. وطالما أن أيوب لم يُتوفَ بالفعل، فقد كان من الممكن استمرار عذابه المجّاني إلى ما لا نهاية. وهنا علينا ألاّ نغفل عن خلفية مجمل هذه الأحداث: فمن المحتمل أن يكون قد تشكل في الخلفية شيء ما ليعوّض أيوب عن آلامٍ ما كان يستحق التعرض لها، شيء ما لم يكن بمقدور يهوه أن يستمر في تجاهله، حتى وإن لم تكن فكرته عنه واضحة تماماً.

فمن دون علم يهوه، وعلى عكس نواياه، رُفع أيوب، المعذب والبريء، سراً إلى معرفة سامية لدى الله، ما كان يهوه ذاته يمتلكها. ولو رجع يهوه إلى معرفته الكلية، لما كان لأيوب الحصول على التميز عنه. لكن في هذه الحالة، كثير من الأمور ما كانت لتحصل أيضاً.

لعل على المرء، وبمنتهى الإيجابية، اختيار أكثر الأمثلة غرابةً ليتمكن من توضيح مقدار اللاتناسب بين الخصمين. فيهوه يرى أمراً ما في أيوب لا يُنسبَ إليه، بل إلى "إله"، بمعنى أنه يرى فيه قوة نديّة تحمله على إخراج آلة قدرته الكلية، واستعراضها أمام خصمه. وهنا يُسقِط يهوه على وجه أيوب وجهاً متشككاً يجده كريهاً، لأنه هو وجهه بالذات. وجه يحدق إليه بعين غريبة وناقدة. وجه يخشاه، فالمرء لا يُطلق أسلحته التي لا تُقهر، من إشاراتٍ على قدرته وذكائه وشجاعته وسوى ذلك، إلا عندما يكون في مواجهة وجهٍ يحمل له دلالات مخيفة. وما شأن أيوب بكل هذا؟ هل يعدّ يهوه نفسه لملاقاة أسد، بينما هو لن يواجه سوى فأر؟

لكن يهوه لم يعرف الراحة عند فوزه في الجولة الأولى، على الرغم من أن زمناً طويلاً قد انقضى مذ سقط أيوب بالضربة القاضية. فيهوه أسقط شبح خصمه اللدود، الذي لا يزال يتهدده، على وجه

أيوب المعذّب المرثي.

لذلك يرفع يهوه يده ثانية مهدداً أيوب:

"أتشك في قضائي

أن تستذنبني لتبرر نفسك؟

أتملك ذراعاً كذراع الله؟

أترعد بمثل صوته؟(37)"

وأيوب هو إنسان منبوذ بلا حماية، مجرّد من كافة حقوقه، لا تمر مناسبة دون تذكيره بتفاهته. وإذ به يظهر جلياً على أنه خطر محدق بيهوه، ويتوجب عليه قصفه بأثقل أنواع القذائف. وهنا يمكن للمرء تبيّن سخط يهوه من خلال تحديه لأيوب المزعوم:

"انظر إلى كل متعظّم وذلّه،

ودُس الأشرار في مواضعهم.

اطمرهم في التراب معاً،

واحبس وجوههم في الهاوية.

عندئذٍ أعترف لك

بأن يمينك قادرة على إنقاذك.(38) "

يبدو أن يهوه يتحدى أيوب كما لو كان إلهاً. لكن، في الحقيقة، وفي ميتافيزيقيا ذلك الزمن، لم يكن من إله آخر قادر على التأثير في يهوه وإسماعه صوته. كان الشيطان هو الوحيد القادر على إسدال الغشاوة على عينيه وتضليله، وهو الوحيد القادر على شحنه ليقوم بالانتهاك الهائل لتعاليمه التي وضعها هو شخصياً. هو حقاً خصم رهيب، وبسبب علاقتهما الوثيقة أمكنه المراوغة والتهرب بمنتهى الحذر، إلى الحد الذي تمكن فيه يهوه من إخفاءه في صدره بمنأى عن وعيه. وعوضاً عن الشيطان، كان لا بد ليهوه من إحلال عبده البائس محله مثل "فزاعة" لزاماً عليه محاربتها. ولعله بنفيه السحنة الملعونة إلى "المكان الخفي"، سوف يتمكن من المحافظة على نفسه في حالة من اللاوعي.

وما كانت إدارة هذه الدراما للمبارزة الخيالية، بكل ما فيها من خطابات مفوّهة، وأداء مؤثر قامت به وحوش ما قبل التاريخ، ما كانت لتقدم تفسيراً كافياً إن حاولنا إرجاعها إلى عامل سلبي صرف هو خوف يهوه من أن يصبح واعياً، والنسبية المتأتية عن ذلك. فالصراع لدى يهوه يحتدم نتيجةً لعامل جديد، وهو بجميع الأحوال غير خافٍ عن المعرفة الكلية، وذلك على الرغم من أن المعرفة الموجودة في هذه الحالة ليست مصاحبة لأية نتيجة. هذا العامل الجديد لم يحدث من قبل في تاريخ العالم، الحقيقة التي لم يسمع بها أحد من قبل، هي: دون معرفة أو رغبة مسبقة يسمو الإنسان الفاني بسلوكه الأخلاقي فوق النجوم، وصولاً إلى السماء، ومن هذا الموقع المتقدم بإمكانه مشاهدة ظهر يهوه: عالم من الشظايا لا قرار له(39).

هل عرف أيوب ما رآه؟ إن كان قد فعل، فقد كان فطناً وحكيماً كفاية للتستر عليه. لكن كلماته تروى في مجلدات:

"قد أدركتُ أنك تستطيع كل شيء

ولا يتعذّر عليك أمر.(40) "

حقاً، بإمكان يهوه أن يفعل كل شيء، ويسمح لنفسه بالقيام بذلك دون أن يرف له جفن، وبهدوء صفيق، يقدر على أن يعرض جانبه المظلم، ويبقى غير واعٍ، وكل ذلك يأتي على حساب الإنسان. بإمكانه أيضاً التباهي بقدراته الفائقة، وسنّ تعاليم لا تعني لهُ أي شيء. فالجريمة وقتل البشر ليسا سوى لعبتين سخيفتين بالنسبة له. وإن توقّد مزاجه، فسيلعب دور السيد الإقطاعي، ويعوّض عبده بسخاء على الدمار الذي لحق بحقله من القمح: "إذن فقدت أبناءك وبناتك؟ لا مشكلة، سوف أمنحك أبناء جدد وأفضل من السابقين."

ويتابع أيوب (لا ريب أنه خفيض الطرف، خافت الصوت):

"تسألني: من ذا الذي يُخفي المشورة من غير معرفةٍ؟

حقاً قد نطقتُ بأمورٍ لم أفهمها،

بعجائب تفوق إدراكي.

اسمع الآن وأنا أتكلم،

أسألكَ وأنتَ تُعلّمني.

بسمع الأذن قد سمعت عنك،

والآن رأتك عيني،

لذلك ألوم نفسي

وأتوب معفّراً ذاتي بالتراب والرماد.(41) "

بدهاء واضح يستخدم أيوب كلمات يهوه العدائية، ويسجد عند قدميه كما لو كان هو الخصم المهزوم حقاً. ومهما بدا خطابه بريئاً، ففيه من الشبهات ما فيه. فالآن قد تعلم درسه جيداً، وجرّب "العجائب" التي لم تكن يسيرة على الاستيعاب. في الماضي تعرّف أيوب على يهوه "سماعياً"، لكنه الآن تمكن من تذوّق حقيقته، بل تذوقها أكثر مما فعل داوود. لقد تلقى درساً قاسياً، ومن الأجدى له ألاّ ينساه أبداً. ففي الماضي كان أيوب ساذجاً ويحلم بإله "طيب"، أو حاكم طيب وقاضٍ عادل. لقد تخيل أن "العهد" هو مجرد مسألة قانونية، وأن كل طرف في العقد بإمكانه الثبات على حقوقه كما اتُفق عليها. كما اعتقد أن بمقدور الإله أن يكون مخلصاً وحقيقياً، أو بالحد الأدنى عادلاً. وكما باستطاعة المرء الافتراض استناداً إلى الوصايا العشر، فسوف يكون لديه بعض التقدير للقيم الأخلاقية، أو على الأقل يشعر بالالتزام تجاه التشريعات التي وضعها هو نفسه. لكن، ويالهول ما عرف أيوب، لقد اكتشف أن يهوه ليس بشرياً، لكنه في جوانب معينة، كان أقل ضعة من البشر، وهو شخصياً يتصف بالصفات التي كان ينسبها إلى لوياثان (التمساح):

"يحتقر كل ما هو متعالٍ،

وهو ملك على ذوي الكبرياء.(42) "

لـ اللا وعي طبيعة حيوانية. وكباقي الآلهة القدماء، فإن ليهوه رمزيته الحيوانية، والتي هي عبارة عن استعارة واضحة عن الآلهة المصرية الأسطورية، وبخاصة حورس، وأبناءه الأربعة.

من بين حيوانات يهوه الأربعة، واحد فقط له وجه بشري، يُحتمل أنه الشيطان، عرّاب الإنسان بصفته الروحانية. تنسب رؤيا حزقيال إلى الألوهة طبيعةً ثلاثة أرباعها حيواني، وربع واحد فقط منها بشري. ولا شبيه للألوهة المتربعة على "عرش الياقوت الأزرق" سوى الإنسان(43). تفسر هذه الرمزية سلوك يهوه الذي لا يطاق من وجهة نظر الإنسان: هو سلوك لا واعٍ، لكائن لا يمكن محاكمته أخلاقياً. فيهوه هو ظاهرة، وكما يقول أيوب "ليس إنساناً"(44).

يمكن للمرء، ودونما صعوبة تذكر، أن يفسر كلام أيوب بمعنىً كهذا. ولعل هذا ما هدّأ روع يهوه في نهاية المطاف، ليكون الإجراء العلاجي للقبول دون مقاومة، قد أثبت فعاليته مرة أخرى. لكن، وعلى الرغم من ذلك، فإن يهوه يظل غاضباً على أصدقاء أيوب، فهم: "لم ينطقوا بالصواب عني. (45) "

وكما يجدر بنا القول، فإن عقدة التشكك التي يسقطها يهوه على أيوب تمتد، بمنتهى السخرية، لتطال أولئك الشيوخ المحترمين والمتحذلقين قليلاً، وكأن: ربك هو العالم بعواقب أفكارهم. لكن، ما يقلق يهوه إلى حد الجنون، هو حقيقة أن يفكر الناس أصلاً، وبخاصة إذا ما كانوا يفكرون به، ولذلك ينبغي له وضع حدّ لهذه المسألة بطريقة ما. فالأمر كثيراً ما يشبه ظهور ابنه المتشرد المتكرر، فيضربه في أضعف نقطة فيه، وغالباً ما يندم أشد الندم على انفجارات غير مقصودة تصدر عنه.

لا يتمكن المرء بسهولة من تبديد الانطباع بتدرّج دنّو المعرفة الكلية إلى الإدراك، ومن رؤيا برؤيا تُظهر أنها مطوقة بمخاوف من التدمير الذاتي. ولحسن الحظ، فإن صياغة الإعلان النهائي لأيوب تجعل المرء يفترض في شيء من التوكيد، أنه فيما يتعلق ببطل المسرحية فإن النهاية كانت سعيدة إلى الأبد.

أما نحن، الكورال الذي يعلق على هذه التراجيديا العظيمة، والتي لم تفقد روعتها على مر الأزمان، فلا ينتابنا ذاك الشعور. فبالنسبة لحساسيتنا المعاصرة، لا يبدو أبداً أن أيوب باحترامه العميق لجلالة الحضور الإلهي، وصمته الحصيف قد جاء بجواب حقيقي على السؤال الذي طرحته مزحة شيطانية للرهان مع يهوه. فأيوب لم يُجب تماماً على السؤال، بل أبدى رد فعل بطريقة ملائمة. وبفعله هذا أبدى ضبط نفس ملحوظ، لكن إجابة ملتبسة لا تزال عالقة بانتظار الإعلان عنها.

لتحليل الأمر الأكثر وضوحاً نسأل ماذا عن الأذى المعنوي الذي مرّ به أيوب؟ هل الإنسان بهذه الضِعة في نظر يهوه حتى لا يلحق به أذى معنوي؟ إن هذا يناقض حقيقة رغبة يهوه بالإنسان، وحقيقة اهتمامه بأن يتحدث الناس عنه "بالخير". فيهوه يحتاج إلى ولاء أيوب، ويعني له الأمر كثيراً، حتى أن شيئاً لن يثنيه عن القيام باختباره. ويعلّق هذا الموقف أهمية إلهية على الإنسان، فما هو الأمر الأكثر أهمية في العالم بأسره، والذي يمكن أن يعني أي شيء لشخص يمتلك كل شيء؟ إن موقف يهوه المنقسم، يقضي، من جهة، على حياة البشر وسعادتهم دون وضع أدنى اعتبار، ومن الجهة الأخرى يحتاج إلى الإنسان ليتشارك معه، وليضعه في مواقف مستحيلة. ففي لحظة ما، يتصرف يهوه بمنتهى اللاعقلانية، بل أشبه ما يكون بطوفان، وفي لحظة تالية، يطالب بأن يكون

محبوباً، ومكرّماً، ومعبوداً، ويُشاد بعدله. إنه يردّ منفعلاً على كل كلمة تحمل أدنى احتمال بالنقد، بينما هو نفسه لا يكترث قيد أنملة لتعاليمه الأخلاقية التي وضعها، إن اتخذت أفعاله اتجاهاً مخالفاً.

يخضع الإنسان لمثل هكذا إله خوفاً وخشية، ويحاول بشكل غير مباشر أن يستعطف الطاغية بثناءاتٍ مداهِنة، وطاعةٍ مزيفة. لكن العلاقة القائمة على الثقة، بحسب طرائقنا الحديثة في التفكير، ليست موجودة على الإطلاق. كذلك لا يمكن توقّع الحصول على الرضا الأخلاقي من الطبيعة اللا واعية لإله من هذا النمط. ومع ذلك، استطاع أيوب أن ينال رضا يهوه، دون أن يكون لدى يهوه النية بحصول ذلك. بل ومن المحتمل، دون أن يدرك هو نفسه ذلك، على ما أظهره الشاعر. إذ تنطوي خطب يهوه على غاية تخلو من الفكر، لكنها واضحة في نفس الوقت، وهي إظهار القوة الوحشية للخالق أمام أيوب: "هذا أنا، خالق قوى الطبيعة، الجامحة، الشرسة، والتي لا تخضع لأية تشريعات أخلاقية. كذا أنا، قوة طبيعة لا أخلاقية، شخصية ظاهراتية بحتة لا يمكنها رؤية خلفيتها".

هذا هو الرضا الأخلاقي من الدرجة الأولى بالنسبة لأيوب، أو قد يكون كذلك بأي حال من الأحوال. إذ من خلال هذا التصريح أصبح الإنسان قاضياً على يهوه ذاته، وذلك على الرغم من عجزه. إننا لا نعلم إن كان أيوب مدركاً لهذا الأمر أم لا، لكننا نعرف من التعقيبات اللانهائية على أيوب، أن كل العصور التي تلت أغفلت حقيقة أن هنالك نوعاً من الـ Moira والـ Dike (46) قد تحكّم بيهوه، ما تسبب بجعله يكشف نفسه بمنتهى الوضوح. بمقدور أي كان أن يرى كيف قام يهوه بخراقةٍ برفع أيوب إلى مكانة أسمى منه، بينما كان يسعى إلى إهانته في التراب. وبقيامه بهذا، كان قد أطلق حكماً على نفسه، ومنح الإنسان رضا معنوياً نجد غيابه عن سفر أيوب أمراً غاية في الإيلام.

لقد أظهر الشاعر الذي كتب هذه الدراما عقلانية في منتهى البراعة، عندما أسدل الستارة على اللحظة التي قدّم فيها بطله اعترافه القاطع إلى خالق الكون ساجداً عند قدمي جلالته الإلهية، وبقيامه بهذا لم يعد مسموحاً بترك أي انطباع إضافي. وكانت ستتفجر في عالم الميتافيزيقيا فضيحة غير اعتيادية، بافتراض أنها ستترك آثارها المدمرة، إذ لم يكن أحد يمتلك الوصفة المخلّصة، والتي كانت ستنقذ مفهوم وحدانية الله من الكارثة. وحتى في أيامٍ كتلك، كان بمقدور العقل النقدي الإغريقي، وبكل سهولة، التقاط هذه الإضافة الجديدة إلى سيرة يهوه، واستخدامها لعكس صالحه (وهذا ما حدث بالفعل، وإن كان بعد وقت طويل)(47) ، ليفرض عليه المصير الذي آلت إليه آلهة الإغريق. لكن، في ذلك الزمن، لم يكن ليخطر ببال أن يكون الله نسبياً، وهكذا استمرّ الأمر طيلة ألفي سنة تلت.

إن لا وعي الإنسان قادرٌ على أنْ يرى بشكل دقيق، حتى عندما يكون منطق الوعي أعمى أو عاجزاً. لقد اختتمت هذه المسرحية إلى الأبد: فطبيعة يهوه المزدوجة قد انكشفت، وهنالك شخص ما، أو شيء ما، عرف هذه الحقيقة، وسجّلها. لم يكن انكشافاً كهذا ليفشل في ترك آثار بعيدة المدى، سواء استوعبه وعي الإنسان أم لم يفعل.

III

قبل أن نجيب على سؤال: كيف تطورت بذور القلق، لا بد لنا من العودة إلى زمن كتابة سفر أيوب. لسوء الحظ فإن التأريخ ليس دقيقاً، لكن الفرضية السائدة تقول بأنه كُتب في وقت ما بين السنة 600 و 300 قبل الميلاد، أي ليس بعيداً عن زمن كتابة سفر الأمثال (ما بين القرن الرابع والثالث). في سفر الأمثالنواجهملامح التأثير الإغريقي، الذي لو كان يعود لزمن سابق، فسيكون قد بلغ فُلك الثقافة اليهودية عن طريق آسيا الصغرى. أما لو كان يعود إلى زمن لاحق، فسيكون قد وصل عن طريق الإسكندرية. هذه هي فكرة صوفيا/الحكمة Sophia(48) أو حكمة الله Sapientia Dei (49)، وهما متلازمتان إلى الأبد. وبشكل أو بآخر، جسدت الروح بطبيعتها الأنثى التي تواجدت من قبل الخليقة:

"اقتناني الرب منذ بدء خلقِه،

من قبل الشروع في أعماله القديمة.

منذ الأزل أنا هو،

منذ البدء قبل أن توجد الأرض.

ولدتُ من قبل أن تتكون اللجج والينابيع الغزيرةُ المياه."

"وعندما ثبّت الربّ السماء،

وحين رسم دائرة الأفق حول وجه الغمْر،

كنت هناك."

"عندما قرر للبحر تخوماً لا تتجاوزها مياهه متعدية على أمر الرب،

وحين رسم أسس الأرض،

كنتُ عندهُ صانعاً مبدعاً،

وكنتُ كل يوم لذّته،

أفيضُ بهجةً دائماً أمامه.

مغتبطةً بعالمه المسكون، ومسراتي مع بني آدم.(50) "

"صوفيا" هذه، والتي تتشارك مع يوحنا لوغوس في بعض الصفات الأساسية، هي من جهة، وثيقة الصلة بـ "الحكمة" Chochma(51) العبرية، لكنها من جهة أخرى تتجاوزها بكثير، حتى أنه لا يمكن للمرء هنا تجاهل الـ "شاكتي"(Shakti(52 الهندية. من المؤكد أن ثمة صلات مع الهند في ذاك الزمن (زمن البطالسة). ومصدر إضافي هو حكمة يشوع بن سيراخ Jesus the Son of Sirach، أو سفر يشوع بن سيراخ Ecclesiasticus، والذي كُتب حوالي 200 قبل الميلاد، وها هي صوفيا/الحكمة تتحدث عن ذاتها:

"إني خرجت من فم العليّ بكراً قبل كل
خليقة،
وجعلت النور يشرق في السموات على
الدوام،
وغشّيت الأرض كلها بمثل الضباب،
وسكنت في الأعالي وجعلت عرشي في
عمود الغمام.
أنا وحدي جُلْتُ في دائرة السماء، وسلكت
في أعماق الغمار
ومشيت على أمواج البحر.
وداست قدمي كل الأرض وعلى كل شعب
وكل أمة تسلطتُ.
قبل الدهر من الأول حازني وإلى الدهر لا
أزول،
وقد خدمت أمامه في المسكن المقدس،
وهكذا في صهيون ترسّختُ وجعلتُ لي
مقراً
في المدينة المحبوبة وسلطنتي هي في
أورشليم.
ارتفعت كالأرز في لبنان والسرو في جبال
حرمون،
كالنخل في السواحل وكغراس الورد في
أريحا،
كالزيتون النضير في السهل وكالدلب على
مجاري المياه في الشوارع
فاح عرْفي كالدارصيني والقندول العطر
وانتشرت رائحتي كالمرّ المنتقى، كالقنة
والجزع

والميعة ومثل بخور اللبان في المسكن.

إني مددت أغصاني كالبطمة وأغصاني

أغصان

مجد ونعمة. أنا كالكرمة المنبتة النعمة

وأزهاري ثمار مجد وغنى. أنا أم المحبة البهية

والمخافة والعلم والرجاء الطاهر.

....

من شرحني فله الحياة الأبدية(53)

يستأهل منا هذا النص قليلاً من التمحيص، فـ صوفيا/الحكمة تصف نفسها في الحقيقة على أنها "اللوغوس(54)"، كلمة الله ("إني خرجت من فم العليّ"). فهي مثل الـ "رواخ" (55)Ruach) روح الله جالت فوق مياه البدء، ومثل الله لها عرشها في السماء، ومثل الروح الكونية البادئة اجتاحت السماء والأرض وكل المخلوقات، وتوافقت مع لوغوس القديس يوحنا في كل سمة. وسوف نرى فيما يلي مدى أهمية هذه الصلة فيما يتعلق بالمضمون.

إنها الإلهة الأنثى لمدينة التميّز أورشليم: المدينة الأم. وهي الأم المحبوبة، وانعكاس عشتار، وإلهة المدينة الوثنية. تتأكد هذه المقاربة من خلال المقارنة التفصيلية بين الحكمة والأشجار، مثل أشجار الأرز، والنخيل، والبطم، والزيتون، والسرو، وغيرها. لقد كانت هذه الأشجار رموزاً للحب والإلهة الأم لدى الأقوام السامية، فكانت الشجرة المقدسة تتواجد دائماً مجاورةً لمذبحها في الأعالي. في العهد القديم كانت أشجار البلوط والبطم هي أشجار الوحي. ويقال إن الله أو الملاك سيتجلى في، أو إلى جانب، الأشجار. فمثلاً استلهم داوود الوحي بجانب شجرة البكا(56). وفي بابل رمزت الشجرة لتموز، الابن العاشق، تماماً كما رمزت لأوزيريس، وأودنيس، وأتيس، وديونيسيوس، وهي كلها آلهة الشرق الأدنى التي توفيت جميعاً في عمر الشباب.

كذلك ظهرت كل هذه الخصال الرمزية في نشيد الإنشاد، كسماتٍ للعريس والعروس. وهنا تلعب الكرمة بعنبها وزهرها وحقولها دوراً هاماً. والحبيبة مثل شجرة تفاح، وسوف تنحدر من الجبال (أماكن عبادة الإلهة الأم)، "في عرين الأسود، من جبال النمور.(57) " رحمها "فردوس رمان مع خيرة الأثمار والحناء والناردين، ناردين وزعفران، قصب الذريرة وقرفة مع كل أصناف اللبان والمرّ والعود مع أفخر العطور.(58) "ويداها "تقطران مرّاً.(59) " (وبحسب ما نذكر فإن أدونيس قد ولد من المرّ). وكالروح القدس مُنحت الحكمة هبة للنخبة، وهي فكرة استقاها أيضاً معتقد "الفارقليط" (60)Paraclete).

وكذلك تظهر الطبيعة الروحانية لـ صوفيا/الحكمة، بالإضافة إلى شخصية مايا التي تتصف بأنها بانية العالم، بوضوح أكبر، في سفر حكمة سليمان(61) (62)Apocryphal):

"إن روح الحكمة محب للإنسان(63)،"

و

"المحب للبشر.(64)"

و

"لأن الحكمة مهندسة كل شيء.(65)"

"فإن فيها الروح الفهم القدوس.(66)"

وهي:

"بخار قوة الله وصدور مجد

القدير الخالص.(67)"

وهي:

"ضياء النور الأزلي ومرآة عمل الله

النقية وصورة جودته.(68) "

وهي:

"لطهارتها تلج وتنفذ في كل شيء.(69) "

و:

"إن في نسبها مجداً تحيا عند الله

ورب الجميع قد أحبها.(70) "

و:

"من أحكم منها في هندسة الأكوان؟(71)"

وهي مرسلة من السماء، ومن عرش المجد "كالروح القدس(72)". "وبما هي حافز روحي، تُفضي إلى الله وبها يُنال الخلود(73)".

يؤكد سفر حكمة سليمان على عدالة الله، ويغامر بالإبحار قريباً للغاية من الرياح، ولعله يفعل ذلك بهدف براغماتي: "لأن البرّ أزليّ، لكن المنافقين هم استدعوا الموت بأيديهم وأقوالهم.(74) "

ويقول الآثمون الفاجرون:

"لنجر على الفقير الصدّيق،

ولا نشفق على الأرملة،

ولا نهب شيبة الشيخ الكثير الأيام.

ولتكن قوتنا هي شريعة العدل:

فإنه من الثبات أن الضعف لا يغني

شيئاً، ولنكمن للصدّيق فإنه ثقيل

علينا، يقاوم أعمالنا ويقرّعنا على
مخالفتنا للناموس، ويفضح ذنوب
سيرتنا، بزعم أن عنده علم الله،
ويسمي نفسه ابن الرب.
وقد صار لنا عذولاً حتى على أفكارنا."
"فلنمتحنْه بالشتم والعذاب،
حتى نعلم حلمه ونختبر صبره.(75) "
في حين أننا قرأنا قبل قليل في سفر أيوب:
"فقال الرب للشيطان: هل راقبتَ عبدي أيوب
فإنه لا نظير له في الأرض،
فهو رجلٌ كامل صالح،
يتقي الله ويحيد عن الشر،
وحتى الآن لا يزال معتصماً بكماله،
مع أنكَ أثرتني عليه لأهلكه من غير داعٍ.(76) "
يقول الواعظ:
"إن الحكمة خير من القوة.(77) "

لا تلمس حكمة سليمان هنا موطن الوجع من باب الاهتمام، أو اللاوعي، بل تفعل ذلك بدافع أعمق. ولنتمكن من فهم هذا الأمر بشكل وافٍ، علينا اكتشاف طبيعة الرابط بين سفر أيوب والتغيير الذي طرأ على يهوه في نفس الوقت، أي علاقته بظهور صوفيا/الحكمة.

إنها ليست مسألة مرتبطة بالتاريخ الأدبي، بل بمصير يهوه، كونه يؤثر على الإنسان. وإننا نعلم من السجلات التاريخية أن الدراما الإلهية قد حدثت ما بين يهوه وشعبه الذي كان مخطوباً له مثل امرأة، فيهوه هوالسلطة (Dynamis(78الذكورية، وهو يهوه يراقب إخلاصها بغيرة. ومثال هذه النقطة هو أيوب، الذي تعرض إخلاصه لامتحان بربري. وكما أسلفتُ الذكر، فإن الأمر الأكثر إدهاشاً هو السهولة التي انقاد بها يهوه إلى وساوس الشيطان. ولو أنه حقاً وثق بأيوب ثقة كاملة، لكان دفاعه عنه هو الأمر المنطقي الوحيد، ولكان نزع القناع عن المفتري الخبيث، وجعله يدفع ثمن افتراءاته على خادم الله المخلص. لكن هذا الأمر لم يخطر على بال يهوه البتة حتى بعد إثبات براءة أيوب. فنحن لا نسمع أي تعينف أو استنكار لفعل الشيطان. ولهذا السبب لا يسع المرء نفي شكوكه بتآمر يهوه. كما أن جاهزيته لرمي أيوب بين يدي الشيطان المجرمتين، هي إثبات على تشككه بأيوب، وتحديداً بسبب إسقاطه على أيوب نزعته الشخصية لخيانة كبش الفداء. وهنالك سببٌ يحملنا على الاشتباه بأنه كان عازماً على قطع علاقته الزواجية بقوم اسرائيل، لكنه كان يخفي هذه النوايا عن نفسه. وقد دفعته هذه الخيانة الغامضة، وبمساعدة الشيطان، للبحث عن

الخائن الآخر، وإذ به، وبمنتهى الدقة، يختار الشخص الأكثر إخلاصاً، ليعرّضه إلى أقسى امتحان. فيهوه أصبح غير أكيدٍ من إخلاصه هو شخصياً.

وفي الوقت نفسه تقريباً، أو بعد ذلك بقليل، سرت شائعة حول ما حدث: لقد تذكر يهوه كائناً أنثوياً لم يكن أكثر قرباً منه مما كان للإنسان، صديقاً ورفيق لعب منذ بداية العالم، أول مولود من بين مخلوقات الله، انعكاس صافٍ لمجده، وعامل بارع، أقرب إلى قلبه وأغلى من السليل الأخير للنموذج البدئي، أي الإنسان الأصلي، والذي لم يتعد كونه منتجاً ثانوياً صيغ على صورته.

لا بد من وجود حاجة ماسة تسببت في هذا الحنين المرضي لـ صوفيا/الحكمة: فالأمور، وبكل بساطة، لم يعد ممكناً لها أن تستمر كما في السابق، ولم يعد بمقدور العادل المضي بارتكاب المظالم، كما لم يعد بمقدور كلي المعرفة أن يتصرف مثل الكائن البشري الجاهل والأرعن. وها قد أصبح تأمل الذات ضرورة لا مفر منها، ولهذا السبب بالتحديد ظهرت الحاجة لوجود الحكمة. أما الآن فيتعين على يهوه أن يتذكر معرفته الكلية، فإن كان أيوب قد وصل إلى معرفة الإله، فلا بد للإله من تعلّم كيفية معرفة ذاته. وبكل بساطة، لم يعد ممكناً أن تصبح طبيعة يهوه الازدواجية ملكية شائعة، وتبقى محجوبة عنه وحده. إن كل من يعرف الله لا بد أن يترك أثره عليه، وهكذا فإن فشل محاولة يهوه لإفساد أيوب قد غيّر من طبيعته.

والآن، متكئين على تلميحات الكتاب المقدس والتاريخ، سوف نمضي في إعادة بناء ما حدث بعد هذا التغيير. ولهذا الغرض تحديداً، علينا العودة إلى زمن "التكوين" والإنسان البدئي ما قبل السقوط. لقد أنتج آدم من ضلعه، وبمساعدة الخالق، قرينه الأنثوي حواء، وذلك بنفس الطريقة التي أنتج بها الخالق آدم الخنثى من المادة الأولية. ومعه أنتج فصيلاً من البشر مدموغاً بالخاتم الإلهي، وأعني هنا شعب اسرائيل والسلالات الأخرى من آدم(79). وجرياً على النمط ذاته، وبشكل غامص، كان مقدراً لابن آدم البكر، كما كان مقدراً للشيطان، أن يكون شريراً وقاتلاً أمام الله، وهكذا تكررت على الأرض، المقدمة التي حدثت في السماء. ونستطيع هنا الذهاب بسهولة إلى أن هذا كان الدافع الأعمق الذي جعل يهوه يحمي قايين الفاشل بصورة خاصة، إذ كان نموذجاً مصغراً من الشيطان. في حين ليس هناك ما يُقال حول النموذج البدئي لهابيل الذي توفي مبكراً، وكان أقرب إلى الله من قابيل. لقد كان فلاّحاً ناجحاً، ولا شك أنه تعلم فنون الزراعة من أحد ملائكة الشيطان. لعل هذا النموذج البدئي كان ابناً آخر لله ذي طبيعة رصينة أكثر من الشيطان، لا شخصاً تائهاً مولعاً بالأفكار السوداء والجديدة، بل كان شخصاً مرتبطاً بوالده بحب طفولي، ولا تساوره أفكار غير تلك التي تحظى برضى الأبوين، كما أنه استقر في الدائرة الداخلية للمملكة السماوية. يفسر هذا الأمر السبب الذي جعل قرينه الأرضي هابيل "يغادر العالم الشرير على عجل"، بحسب كلام سفر الحكمة، ليعود إلى الأب. في حين كان على قايين، بوجوده الأرضي، أن يتذوق حتى الثمالة لعنة تطوره من جهة، ودونيته الأخلاقية من جهة أخرى.

إذا كان الأب الأصلي، آدم، نسخة عن الخالق، فلا بد أن ابنه قايين هو نسخة عن الشيطان، بما هو ابن ليهوه وهذا ما يعطينا سبباً جيداً لافتراض أن هابيل، الابن المفضل لدى الله، كان له أيضاً قرينه في "السماء العليا". ولا بد للأحداث المشؤومة التي وقعت تماماً عند بدء الخليقة: السقوط وقتل الأخ لأخيه، والتي تبدو ظاهرياً خَلقاً ناجحاً ومُرضياً، أن تشدّ انتباهنا، وتجبرنا على الاعتراف بأن الحالة البدئية، عندما كانت روح الله تجول فوق الأرض اليباب(80)، ما كانت لتسمح لنا بتوقع نتيجة مثالية للغاية.

وعلاوة على ذلك، فإن الخالق، والذي وجد في كل يوم أن عمله كان "حسناً"، لم يوفق في إعطاء إشارات حسنة لمجريات يوم الإثنين. إذ أنه، وبكل بساطة، لاذَ بالصمت، وهو ظرف يُجيّر لصالح أن الصمت دليل على أمر ما. وما جرى في ذلك اليوم كان انفصالاً نهائياً للمياه العلوية عن السفلية برقاقة سماوية وسيطة. وإنه لمن الواضح أن هذه الازدواجية المحتومة رفضت، حينها وبعدها، أن تنساب بسلاسة ضمن فكرة وحدانية الله، ذلك لأنها دلّت على انفصال ميتافيزيقي. وكما نعرف من التاريخ، فقد تم رأب ذالك الانفصال وإخفاءه وإنكاره، مرة تلو الأخرى طيلة قرون. وقد أظهر نفسه منذ البدايات في الفردوس، وذلك عبر غرائبيات غير مترابطة أصابت الخالق، أو حلّت عليه. وبدلاً من المضي في برنامجه الأصلي لإظهار الإنسان على أنه سيد المخلوقات، وأكثرها ذكاء، في اليوم الأخير، قام بخلق الأفعى، والتي برهنت على أنها أكثر ذكاء ووعياً من آدم، وعلاوة على ذلك خُلقت قبله. وهنا يسعنا الافتراض بصعوبة أن يهوه يخادع نفسه، والاحتمال الأقرب هو أن لابنه الشيطان يداً في هذا الأمر، فهو الأفّاق النكِد، الذي لا يعجبه أمر أكثر من التسبب بالحوادث المؤذية.

8وعلى الرغم من أن يهوه خلق الزواحف قبل آدم، إلا أنها كانت زواحف عادية، أو أفاعي حديقة بالغة الغباء، ومن بينها اختار الشيطان أفعى الشجرة ليتقنّع بها، ومنذئذٍ سرت شائعات بأن الأفعى هي "أكثر الحيوانات روحانية(81)." لتصبح بعد ذلك رمزاً مفضّلاً للدلالة على العقل/الذكاء (Nous(82)، وتحصل على أعلى مراتب الشرف، حتى أنه أبيح لها أن تكون رمزاً لابن الله الثاني، إذ كثيراً ما تم تأويل الأخير على أنه الكلمة المخلّصة للعالم، وكثيراً ما ظهر متطابقاً مع العقل/الذكاء.

كما تذهب إحدى الأساطير اللاحقة إلى أن أفعى جنة عدن كانت ليليث، زوجة آدم الأولى، والتي أنجب منها قبيلة من العفاريت. كذا تفترض هذه الأسطورة خدعة لا يمكن للخالق أن يكون قد قام بها. ونتيجة لهذه الأسطورة، فإن الكتاب المقدس لا يعرف زوجة شرعية لآدم سوى حواء. ومع ذلك تبقى الحقيقة المستغرَبة: أن يكون الإنسان الأصلي، الذي خُلق على صورة الله، قد تزوج زوجتين، وذلك بحسب التقاليد، تماماً كما فعل نموذجه البدئي السماوي. وتماماً، كما اتّحدَ يهوه شرعياً مع زوجته اسرائيل، بينما عنده روح أنثوية أخرى على صورة رفيقة طفولة أزلية؛ كذلك اتخذ آدم زوجة أولى هي ليليث (وهي ابنة الشيطان، أو انبثاق عنه)، وكأنها المقابل الشيطاني لـ صوفيا/الحكمة، لتأتي حواء بعد ذلك وتكون مقابلاً لشعب اسرائيل.

وبصورة طبيعية لا نعرف لماذا يتوجب علينا، في عصرنا الحالي، أن نعرف أن رواخ إيلوهيم: روح الله، ليس فقط روحاً مؤنثة، بل هو كائن مستقل إلى حد ما، ويتواجد جنباً إلى جنب مع الله، وأنه قبل وقت طويل من زواج يهوه باسرائيل، كان على صلات مع صوفيا/الحكمة. كما أننا لا نعرف لماذا اختفى ذكر هذه الصلة في التقاليد الأقدم. كذلك الأمر مع معرفتنا بالعلاقة الحساسة بين آدم وليليث، إذ أنها جاءت متأخرة جداً. وبالإضافة إلى ذلك، لا يتضح لنا إن كانت حواء زوجة مزعجة بالنسبة لآدم، كما كان بنو اسرائيل بالنسبة ليهوه، فكثيراً ما كانوا يباغتون بالخيانة. وبمطلق الأحوال، فإن الحياة الأسرية لأبوينا الأولين لم تكن كلها بهجة ومسرّة، فقد كان ابناهما الأولان نموذجاً للإخوة الأعداء. وبشكل واضح، جرت العادة في تلك الأيام أن يعيش المرء في الواقع، وخارج نطاق الأسطورة، (أما في يومنا هذا، فإذا ما حدث هذا الأمر، فسيكون مرفوضاً وبغيضاً). ويحمل الأبوان جزءاً من مسؤولية الخطيئة الأصلية، فما على آدم سوى تذكّر أميرته

الشيطانية، وما على حواء نسيان أنها كانت أول من وقع في حبائل الأفعى. تماماً كما لا يمكن اعتبار الجزء المسرحي الذي قدمه قايين وهابيل، على أنه أحد النجاحات المشرقة للخلق.

ولا بد للمرء أن يخلص إلى هذه النتيجة، إذ لم يبد يهوه على علم مسبق بالحوادث المذكورة آنفاً. ونجد هنا، كما سنجد لاحقاً، سبباً ما يدعونا للظن بأنه لم يكن هناك من نتائج تم استخلاصها من المعرفة الكلية: فيهوه أبداً لم يستشر معرفته الكلية وتبعاً لذلك فوجئ بالنتيجة. وبوسع المرء ملاحظة وجود الظاهرة نفسها لدى البشر، حيث لا يمكن للبشر إنكار فرحهم بمشاعرهم. ولا مفر من الاعتراف أن لنوبة غضب أو استياء جاذبيتها الخفية. ولو لم يكن الأمر كذلك، لاكتسب معظم الناس منذ زمن طويل شيئاً من الحكمة.

بمقدورنا، من وجهة النظر هذه، الوقوف في موقع أفضل لفهم ما الذي جرى لأيوب. ففي حالة الملء(83) (84)(85)(Pleromatic or Bardo State) ثمة تفاعل تام للقوى الكونية، لكن في حالة الخلق، أي في حالة انقسام العالم إلى إجراءات متمايزة في الفضاء والزمان، فإن القوى تتصادم وتتدافع بعضها ببعض.

باستطاعتنا، ومن وجهة النظر هذه، الوقوف في موقع أفضل لفهم ماذا جرى لأيوب. ففي حالة الملء أو حالة باردو، بحسب تسمية أهل التيبت، كان ثمة تفاعل تام للقوى الكونية. لكن في حالة الخلق، أي في حالة انقسام العالم إلى سياقات متمايزة في الفضاء والزمان، فإن القوى تتصادم وتتدافع مع بعضها البعض.

متخفياً بعباءة أبوية، باشر الشيطان بوضع لمسته الصائبة هنا، ولمسته الخاطئة هناك، مسبباً بذلك تعقيدات جاءت على شكل مفاجآت لم تكن تتضمنها خطة الخالق ظاهرياً. وبينما كانت الكائنات غير الواعية مثل الحيوانات، والنباتات، والبللورات، تؤدي مهامها على أكمل وجه، كانت أمور الإنسان تسير باستمرار على نحو خاطئ.

ففي البداية لم يكن وعيه يزيد إلا بقليل عن وعي الحيوانات، ولهذا السبب كانت حرية إرادته محدودة للغاية، لكن الشيطان كان يهتم به، ويجري عليه تجاربه بطرائقه الخاصة، ليسوقه إلى مختلف أنواع الشرور. بينما كانت ملائكته تعلمه الفنون والعلوم، والتي ما تزال محفوظة إلى اليوم لكمال حالة الملء. (حتى في تلك الأيام، استحق الشيطان بجدارة اسم "لوسيفر Lucifer"!). وبينما كان غضب يهوه يستعر تجاه سلوكيات البشر الغرائبية غير المتوقعة، نراه يتورط مع خليقته، ليصبح لا مفر من التدخل الإلهي. وما يدعوه للغضب هو أن نجاحهم يبقى مؤقتاً. فحتى العقاب الدراكوني: أي إغراق الحياة بعدد من الخيارات الاستثنائية، (وهو مصير لم تنج منه حتى الأسماك، بحسب يوحنا يعقوب شويختسر المبني على دليل المستحاثات)، لم يدم أثره طويلاً، فبقي الخلق كما كان عليه من قبل. والغريب في الأمر هو أن يهوه كان يبحث، وباستمرار، لدى الإنسان عن مسبباتٍ لغضبه، بينما كان من الواضح أن الإنسان يرفض الخضوع. لكنه لم يكن يبحث عن مسبباتٍ لغضبه لدى ابنه الذي يقوم بكافة أنواع الخدع. ولا يمكن لهذا التوجه الخاطئ أن يفشل في إثارة سخط طبيعته النارية أصلاً. وهكذا فقد أصبحت خشية الله، بصورة عامة، هي رأس الحكمة. بينما حاول البشر تحت هذا المبدأ الصارم توسعة وعيهم بالحصول على اليسير من الحكمة، وهذا يعني القليل من البصيرة والتفكّر(86). من الواضح من خلال التطوّر التاريخي أن يهوه قد أضاع مشهد وجوده الممتلئ مع صوفيا/الحكمة منذ أيام الخلق، وحل محله العهد مع الشعب المختار،

الذين اضطروا إلى القيام بدور المؤنث. يومها كان الشعب يتألف من مجتمع أبوي، حصلت فيه النساء على أهمية ثانوية فحسب. ولهذا السبب، كان زواج يهوه من اسرائيل علاقة ذكورية أساساً، شيئاً مشابهاً لتأسيس المدينة الإغريقية، والذي حصل في الوقت نفسه تقريباً.

كانت دونية المرأة حقيقة ثابتة، ولطالما عوملت المرأة على أنها أقل كمالاً من الرجل، إذ أن ضعف حواء تجاه إغراءات الأفعى كان مثبتاً وبشدة. فالكمال هو أمنية ذكورية، في حين تنزع المرأة بطبيعتها إلى التكامل. وفي حقيقة الأمر، فإن الرجل لا يزال قادراً، إلى يومنا هذا، على الثبات على حالة نسبية من الكمال مدة أطول مما تفعله المرأة، وفي حال أفضل منها. في حين أن الرجل، وكقاعدة عامة، لا يتفق مع النساء، بل وقد يشكل خطراً عليهن. وفي حال سعت امرأة إلى الكمال، فهي بذلك تنسى الدور المتمم للتكامل، والذي على الرغم من عيبه، إلا أنه يشكل النظير الضروري للكمال. إذ، وكما هو التكامل غير كامل على الدوام، فإن الكمال، أيضاً ناقص دوماً، وبالتالي يمثل الحالة النهائية التي تبقى حالة من العقم ميؤوس منها. يقول المعلمون الأولون: "بعد الكمال لا يستوي شيء"، في حين أن عدم الكمال يحمل ضمناً البذور اللازمة لتطوّره. ودائماً ما تنتهي الكمالية في درب ضيق، في حين يفتقر الاكتمال بحد ذاته إلى قيم بعينها.

في صميم زواج يهوه من اسرائيل ثمة نزوع للكمال، يُقصي بدوره ذلك النوع من الارتباط المعروف لدينا باسم الإيروسية(87) "Eros". تظهر، وإلى حد مؤلم، في سفر أيوب حاجة للإيروسية، وللتعلّق بالقيم: إن نموذج الخليقة ليس إنساناً، بل هو وحش! ويهوه لا يرتبط بعلاقة إيروسية مع إنسان، بل يرتبط بصلة مع الهدف، ويتوجب على الإنسان مساعدته لتحقيقه. ومع ذلك، فإن هذا الأمر لم يمنعه من أن يكون غيوراً ومتشككاً مثل أي زوج، على الرغم من أن غايته تكمن في الفكرة، لا في الإنسان ذاته.

وكلما نسي يهوه الحكمة، أصبح إخلاص شعبه هو الأمر الأكثر أهمية بالنسبة له. لكنهم كانوا ينزلقون مرة تلو المرة في الخيانة على الرغم من البراهين العديدة التي تدلل على نعمه عليهم، وبصورة طبيعية، فإن هذا السلوك لا يلطّف من غيرة أو شكوك يهوه. ومن هنا فإن وساوس الشيطان كانت تجد التربة الخصبة لها عندما يسرّ بشكوكه حول إخلاص أيوب في الأذن الأبوية. وخلافاً لقناعاته الشخصية، فإن يهوه يوافق، ودون أي ترددٍ، بإنزال أسوأ العذابات على الإنسان. الآن، وأكثر من أي وقت مضى، يفتقد المرء إلى "حب صوفيا للبشر"، وكذلك أيوب يتوق إلى الحكمة التي يتعذر إيجادها في أي مكان(88).

يمثل أيوب ذروة هذا التطور البائس، فهو يلخّص فكرة كانت، في الوقت نفسه، تنضج لدى البشر، وهي فكرة خطيرة تزيد من الطلب على حكمة الآلهة والإنسان. وعلى الرغم من وعيه لهذه الاحتياجات، فمن الواضح أن معرفة أيوب ليست وافية حول صوفيا/الحكمة، الملازمة الأبدية للألوهة. ونظراً لأن الإنسان يشعر بوقوعه تحت رحمة رغبة يهوه المزاجية، فهو بحاجة إلى الحكمة، بينما يهوه لم تكن لديه هذه الحاجة، فهو، لغاية الآن، ليس لديه ما يتنافس معه سوى تفاهة الإنسان. وبجميع الأحوال، وبفعل دراما أيوب، تغير الموقف بصورة راديكالية، فهنا يهوه يواجه إنساناً تمكّن من الثبات على إيمانه، والتمسك بحقوقه، إلى أن أُجبر على إفساح الطريق أمام قوة متوحشة. لقد رأى أيوب وجه يهوه، والجزء اللاواعي في طبيعته. والآن أصبح يهوه معروفاً لدى أيوب، وأصبحت هذه المعرفة فاعلة، ليس فقط لدى يهوه، بل لدى الإنسان أيضاً. هكذا تمكن أناس عاشوا في قرونٍ قليلة سبقت الميلاد، وبفضل اللمسة اللطيفة من صوفيا/الحكمة الموجودة مسبقاً،

من تعديل موقف يهوه، وفي الوقت ذاته من تذكر الحكمة تذكراً كاملاً. والدليل الواضح على استقلال الحكمة الكامل هو اتخاذها شكلاً مشخصاً للغاية. كما أن الحكمة تكشف عن نفسها أمام الناس كمعين ودود لهم، ومدافعاً عنهم أمام يهوه، وتريهم الجانب المشرق والحنون والعادل والودود لإلهم.

وفي الوقت ذاته، بينما كانت دعابة الشيطان مع الأفعى تلوّث الفردوس الذي كان مقدراً له أن يكون مثالياً، طرد يهوه آدم وحواء اللذين خلقهما على صورة جوهره المذكّر، وما انبثق عنه من أنوثة، إلى عالم خارج الفردوس، عالم منفي من الشظايا. وإن لم يكن من الواضح مقدار ما تمثله حواء من صوفيا، ومقدار ما فيها من ليليث، لكن، وبمطلق الأحوال، بقيت لـ آدم أفضلية التقدم بكافة الصفات، فمثلاً أُخذت حواء من ضلعه بعد تفكير متأنٍ. وإني أذكر هذه التفاصيل من سفر التكوين، فقط بسبب الظهور المتكرر لـ صوفيا في الأقاليم السماوية، والذي يشير إلى أن هناك فعلاً قادماً من الخلق.

إن صوفيا هي حقاً "العامل الخبير" الذي يدرك أفكار الله فيُلبسها شكلها المادي، وهذا ما تتفوق فيه كافة الكائنات المؤنثة. ويعني وجودها المشترك مع يهوه "الزواج الإلهي(89)" الدائم، الذي وُلد منه العالم وجاء إلى الحياة. ولكن ثمة تغير خطير الآن على وشك الحدوث: يرغب (يهوه) في استيلاد نفسه، عن طريق سر العرس السماوي، وأن يصبح بشرياً، كما فعل كبار الآلهة المصريون منذ الأزل. وللوصول إلى هذا، استخدم يهوه النموذج المصري في تجسد الإله في الفرعون. وهذا النموذج، بدوره، هو نسخة عن الزواج الإلهي الدائم في حالة الملء. يخطئ من يفترض بأن هذا النموذج البدئي يكرر نفسه آلياً فحسب. وكما نعلم إلى الآن، ليس الأمر على هذه الصورة البتة، فالنموذج البدئي يعود فقط عندما يتم استدعاؤه على نحوٍ خاص. أي يجب البحث عن السبب الحقيقي لأن يصبح يهوه إنساناً أثناء المواجهة مع أيوب، وسوف نعالج هذا الموضوع لاحقاً بكثير من التفصيل.

IV

ولأن قرار الله أن يصبح إنساناً ينهض على النموذج المصري، فبإمكاننا أن نتوقع أن تتبع الإجراءات أيضاً يأتي وفق ترتيبات بعينها. فمثلاً تدلل مقاربة صوفيا على خلقٍ جديد، لكن هذه المرة لن يتغير العالم، إذ أن الله هو الذي ينوي أن يغير طبيعته الخاصة. فاليوم لن يتم القضاء على النوع البشري كما كان الأمر في الماضي، بل سيتم تخليصهم. وبوسعنا تبيّن عمق تأثير صوفيا "الإنساني": لن تُخلق كائنات بشرية جديدة، بل هو كائن واحد "الإنسان ـ الإله". ووصولاً لهذه الغاية لابد من توظيف إجراء مغاير: لن تصنع يد الخالق الـ "آدم الثاني"، كما حدث مع النسخة الأولى، بل يجب أن يولد مباشرة من امرأة من البشر. إذن، هذه المرة، ستولى الأهمية الكبرى لـ "حواء الثانية"، ليس بالمعنى الزائل فحسب، بل بالمعنى المادي أيضاً. وعلى أساس ما يدعى بالبشارة الأصلية. وتتطابق حواء الثانية مع "المرأة ونسلها(90)" الذي سوف يسحق رأس الأفعى. وتماماً كما كان الاعتقاد سائداً بأن آدم كائن خنثى في الأصل، كذلك ساد اعتقاد بأن "المرأة ونسلها" هما زوج من البشر، كأنها: ملكة السماء وأم الله، وكأنه: الابن الإلهي الذي لا أب له من البشر. وهكذا اختيرت "مريم العذراء" كوعاءٍ طاهر للميلاد المقبل للإله. كما أن استقلال مريم عن المذكّر هو توكيد لعذريتها، وهو أمر ذو ضرورة حتمية لسير العملية. فهي "ابنة الإله" التي تفرّدت منذ البدء، كما سيتم ترسيخها عقائدياً فيما بعد، بامتياز الحبل بلا دنس، وبذلك كانت بريئة من دنس الخطيئة الأصلية. وبالتالي فمن الواضح أنها تنتمي إلى حالة ما قبل السقوط.

هذا الأمر يطرح بداية جديدة، فالطهر الإلهي لحالتها يوضح على الفور أنها لا تحمل صورة الله في نقاء غير منقوص فحسب، بل وبصفتها عروس الله، فإنها أيضاً تجسّد نموذجها الأصلي، وتحديداً صوفيا، وأن حبها للبشرية، الذي أكدت عليه الكتابات القديمة بكثافة، يوحي بأن يهوه، في خلقه الأحدث هذا، قد أباح لنفسه أن يتأثر بالغ التأثر بصوفيا. فـ مريم، المباركة بين النساء، هي صديقة للخطّائين، وشفيعتهم، أي إنها صديقة وشفيعة للبشر جميعاً. ومثل صوفيا، فإنها وسيط يهدي إلى طريق الله، ويضمن الخلود لبني البشر. وما انتقالها إلى السماء سوى نموذج أصلي لانبعاث الإنسان. وبصفتها عروس الله، وملكة السماء، فهي تحتل مكانة صوفيا في العهد القديم.

إن المميز حقاً هنا، هو تلك الاحتياطيات الاستثنائية التي اتُخذت عند خلق مريم: حبل بلا دنس، وطهارة من لوث الخطيئة، وعذرية أبديّة. ومن الجلي أنه قد تمت حماية أم الله الآن من مكائد الشيطان. ومن هذه الاحتياطيات نستنتج أن يهوه تشاور مع معرفته الكلية، بما تشتمل عليه من معرفة واضحة بالنيات الخبيثة التي يخفيها ابنه الشرير، وكان من الواجب صون مريم من هذه التأثيرات الفاسدة مهما كان الثمن. لكن النتيجة الحتمية لكل هذه الإجراءات المدروسة كانت أمراً لم يؤخذ بالحسبان في التقييم الدغمائي للتجسد: فبراءة مريم من الخطيئة الأصلية جعلها معزولة عن البشر بعامة، والذين هم خطّاؤون بالأصل، ولهذا السبب وجدت الحاجة إلى الافتداء.

تعادل حالة "ما قبل السقوط" الحالة الفردوسية، أي الوجود الممتلئ والإلهي. وباعتماد هذه المقاييس الاستثنائية عليها، اصطفيت مريم إلى مرتبة إلهة، وبالتالي فقدت بعضاً من كينونتها البشرية: فهي لن تحبل بابنها من الخطيئة كما تفعل سائر الأمهات، وتبعاً لذلك، سوف لن يكون

ابنها واحداً من الكائنات البشرية، بل إلهاً. وبحسب معرفتي الشخصية ـ على الأقل ـ لم يخطر على بال أحد أن هذا الأمر قد يحرّف الإعلان عن تجسّد حقيقي لله، أو حتى أن التجسّد قد تحقق منقوصاً، فالأم والابن ليسا بشريين حقيقيين على الإطلاق، بل هما آلهة.

وفي الوقت الذي أشادت فيه هذه التسوية بشأن مريم بالمعنى الذكوري ورفعتها إلى مصاف المسيح الكامل، فإنها قد أذت المبدأ الأنثوي بعدم الكمال، أو الاكتمال، والذي أنقصته النزعة الكمالية ليصبح غير كامل بصورة طفيفة، وبالتالي يصبح هذا ما يميز مريم عن المسيح. وهكذا، فكلما مال المثال الأنثوي باتجاه المثال الذكوري، خسرت المرأة من قدرتها على تعويض النهم الذكوري للكمال، وظهرت حالة ذكورية نموذجية، والتي كما سنجد لاحقاً أنها مهددة بالانقلاب الضدي(91) Enateodromia. ليس هنالك من طريق يؤدي إلى ما بعد الكمال في المستقبل، بل هي عودة إلى الماضي فحسب، وانهيار للمثال، الأمر الذي كان تجنبه ممكناً بسهولة بالغة لو حظي المثال الأنثوي بالاكتمال باهتمام أكبر.

هذا ويستمر كمال يهوه من العهد القديم إلى الجديد. وعلى الرغم من كل التمجيد والتقدير الذي ناله المبدأ المؤنث، إلا أن هذا الأمر لم يدعه مطلقاً يسمو على التفوق الأبوي. ولهذا، فإننا لم نسمع ولا بأي شكل من الأشكال آخر الكلام.

V

أفسد الشيطان قايين، الابن الأكبر للأبوين الأولين، الذي لم يكن خلقه عملاً ناجحاً، إذ كان ظلاً للشيطان. في حين كان هابيل، الابن الأصغر، هو الأثير لدى الله. لقد كان قايين صورة مشوهة عن الله، بينما كان هابيل صورة أقل قتامة. وإن اعتبرنا أن آدم هو صورة الله، فسوف يكون هو التجسيد المسبق للإنسان – الله، وسيكون في هذه الحالة ابن الله الناجح هو هابيل (والذي لا نجد عنه وثائق كما تبيّن لنا). وعن هذا الأخير (أي آدم)، فنحن نعلم، وبمنتهى الثقة، أنه مثل الـ لوغوس/الكلمة سابق الوجود، وأزلي مع الله. حقاً إنه من نفس الجوهر، وتبعاً لما سبق، بإمكان المرء اعتبار أن هابيل نموذج أصلي غير كامل عن ابن الله، الذي توشك مريم على إنجابه.

وكما باشر يهوه في الأصل بخلق قرين مماثل لنفسه في شخص الإنسان الأول، آدم، كذلك الأمر الآن، إذ نجده عازماً على تكرار الأمر، لكن بصورة أفضل من السابقة. ولم تُتخذ الاحتياطات الاستثنائية سابقة الذكر، إلا لتحقيق هذا الغرض. وسيكون المسيح، الابن الجديد، من ناحية، مثل آدم، إنساناً فانياً وقادراً على الألم، لكنه من ناحية أخرى، لن يكون مثل آدم مجرد نسخة، بل يجب أن يكون هو الله نفسه: يلد نفسه كما يفعل الآب، ويجدد شباب الآب وكذلك الابن. وبصفته إلهاً كان هو دائماً الله، وبصفته ابن مريم، النسخة الطفيفة عن صوفيا، فهو أيضاً اللوغوس/الكلمة (مرادف العقل/الذكاء nous) وهو، مثل صوفيا، العامل الخبير،كماجاء في إنجيل القديس يوحنا(92). ولنذكر أنه تم التوكيد على توحّد الأم بالابن مراراً وتكراراً في الأساطير القديمة.

وعلى الرغم من أن ميلاد المسيح حدثٌ يتكرر مرة واحدة في التاريخ، إلاّ أنه تواجد في الأبدية على الدوام. فبالنسبة للعلماني الذي ينظر في هذه المسائل، من الصعوبة بمكان أن يقتنع بتوحّد حدث غير مؤقت وأبدي، مع حدث تاريخي فريد. وعليه الاعتياد على أن "الزمن" هو مفهوم نسبي، ولكي يتكامل يحتاج إلى الوجود المتزامن لكافة السياقات التاريخية، كما في حالة الباردو أو حالة الملء. فما يوجد في حالة الملء على أنه سياق أبدي، يبدو مع الزمن تواتراً لادورياً، أو لنقل: أمر يتكرر في أزمان مختلفة وبسياقات غير منتظمة.

ولنضرب مثلاً واحداً على ما سبق: ليهوه ابن صالح، وآخر طالح، قايين وهابيل، يعقوب وعيسو أيضاً يناسبان هذا النموذج. وهكذا، في كل الأزمان، وفي كافة أرجاء الأرض، يتكرر نمط الأخوين العدوين، والذي لا يزال يتسبب بانشقاقات في العائلات بتنويعات حديثة لا نهائية، ويضمن انشغال الأطباء النفسيين.

يمكننا أيضاً أن نجد مثالاً آخر لا يقل قيمة ومعنى عن سابقه، عن امرأتين سبق لهما أن خلقتا في الأبدية. عندما تتكرر هذه الأمور في التنويعات الحديثة لا يمكننا اعتبارها نماذج لحوادث شخصية، أو مصادفة خصوصية لدى الأشخاص، بل جزء من السياق الملئي ذاته، والذي لم يتكسر إلى أحداث فردية تتكرر عبر الزمن، بل بقي مكوناً أساسياً أو مظهراً من مظاهر الدراما الإلهية.

عندما خلق يهوه العالم من مادته الأولية (الفراغ)، لم يقو على كتمان سره فبثه في خلقه، هذا السر هو ذاته في كل جزء من الأجزاء، وذلك كما يقتنع كل لاهوتي منطقي. ومن هنا ينبع الإيمان بأن معرفة الله ممكنة من خلال خليقته. وعندما أقول إنه لم يقو على كتمان سره، فإنني لا أفترض أن

هنالك تقييدات على قدرته الكلية، بل على العكس، هو نوع من الاعتراف بأنه يتضمن كافة الاحتمالات، وتبعاً لذلك لا يوجد احتمالات إضافية لتعبر عنه.

إن العالم كله ملك لله، والله موجود في العالم منذ لحظة البدء. ولعل المرء يتساءل بدهشة: لماذا إذن إثبات القوة المتمثل في التجسّد؟ فالله هو موجود أصلاً في كل شيء، ولو أعيدت عملية الخلق ثانية، وتم تنظيمها بمزيد من الرعاية والحذر، فلا بد من أن نقصاً ما سيظهر في موقع ما. ونظراً لأن الخلق هو مسألة كونية، وتصل إلى أكثر النجوم نأياً، ونظراً لكونه قد جعل الحياة العضوية متمايزة إلى اللانهاية، وقادرة على تمايزات لانهائية، فقد كان من الصعوبة بمكان علينا أن نجد موطن العيب. وحقيقة أن الشيطان قد أشاع الفساد في كل مكان هو أمر يدعو للأسف لأسباب مختلفة، لكن كل هذا لا يشكل فرقاً من حيث المبدأ. وتبقى الإجابة على هذا السؤال عسيرة.

يرغب المرء بالقول إن المسيح قد ظهر لينقذ البشرية من الشر، لكن عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أن الشيطان قد دسّ الشر ضمن خطط الأشياء منذ البدء، ولم يزل يفعل ذلك، فإن ما يبدو أكثر سهولة هو أن ينادي يهوه هذا "الهزلي" فيحاسبه حساباً عسيراً، ويتخلص من أثره الخبيث، فيستأصل الشر من جذوره. وعندئذٍ الأمر تدبيراً محكماً لتجسّد خاص، ولِما ترتّب على هذه العملية من آثار لم تكن بالحسبان.

هنا يجب أن يوضح المرء لنفسه ماذا يعني أن يصبح الله إنساناً، فهذا الأمر يعني أن هنالك تحولاً إلهياً سيزلزل العالم. إنه يعني، بشكل أو بآخر، معنى الخلق الأول، وبصورة رئيسية يعني تشييء الله (أي جعله شيئاً). في زمن الخلق تجلى الله في الطبيعة، والآن يود أن يكون أكثر تحديداً فيصبح إنساناً. وبجميع الأحوال لا بد من التسليم بوجود نزعة للتحرك بهذا الاتجاه منذ البداية. إذ عندما ظهرت تلك المخلوقات البشرية الأخرى، وقد كان واضحاً أنها خلقت قبل آدم، ضمن المشهد إلى جانب الثدييات الأخرى، وقد خلق يهوه في اليوم التالي الإنسان الذي كان على صورة الله، وكان هذا استباقاً لصيرورته إنساناً، ثم وضع ذرية آدم، وبخاصة بني اسرائيل، في عهدته الخاصة، وصار بين فينة وأخرى ينفث روحه في أنبياء هذا الشعب. وكانت تلك الأشياء بمثابة أحداثٍ تحضيرية وأعراض لنزوع الله إلى أن يصير إنساناً. بيد أن المعرفة الكلية عرفت منذ الأزل بوجود الطبيعة البشرية لله، أو الطبيعة الإلهية للإنسان. ولهذا السبب تحديداً، وقبل أن يكتب سفر التكوين بزمن طويل، نجد شهادات على ذلك في سجلات مصر القديمة. إن المرء ليندهش لهذه الإشارات والتصورات المسبقة عن التجسّد، فهي إما غير مفهومة تماماً، أو أنها مغالية، نظراً لأن الخلق كل الخلق هو ملك لله، ولا يتألف مما سوى الله. والنتيجة أن الإنسان مثل باقي المخلوقات، هو بكل بساطة: الله مجسداً. لكن التصورات المسبقة ليست بحد ذاتها أحداثاً مبدعة، بل هي مجرد مراحل ضمن عملية الدخول في الوعي. ولم ندرك إلاّ مؤخراً (أو بالأحرى لا زلنا في بدايات إدراكنا) أن الله هو حقيقة بحد ذاته، ولهذا السبب، وأخيراً وليس آخراً، فهو إنسان، وإدراك هذا كان عملية طويلة احتاجت إلى ألفية بأسرها لاستيعابها.

VI

فيما يتعلق بالمسألة الكبرى التي نوشك على مناقشتها: الاستطراد عن أحداث الملء، سيكون من المفيد طرحها كمقدمة.

إذن ما هو السبب وراء التجسّد كحدثٍ تاريخي؟

للإجابة على هذا السؤال، ينبغي علينا العودة قليلاً إلى الوراء. فكما رأينا، من الواضح أن ليس لدى يهوه رغبة بالاعتماد على معرفته الكلية، كونها النقيض الموازي لديناميات القدرة المكافئة. والمثال الأكثر إيضاحاً هنا هو علاقته بالشيطان، إذ طالما بدا يهوه أنه لا يعلم بنوايا ابنه، ويعود السبب هنا إلى أنه لم يستشر معرفته الكلية أبداً. ولا يمكننا تفسير هذا الأمر إلاّ بافتراض أن يهوه كان مفتوناً بأعمال الخلق المتعاقبة التي كان ينجزها، فكان مذهولاً بهذه الأعمال إلى حد أنه نسي كل ما يتعلق بمعرفته الكلية. وإنه لمن المفهوم أن تكون الأشياء السحرية الأكثر تنوعاً، والتي لم يسبق لها التبدّي بهذه الروعة البدائية، قد سببت ليهوه بهجة لا متناهية.

لم تخن الذاكرة صوفيا عندما قالت:

".. وحين رسم أسس الأرض،

كنتُ عنده صانعاً مبدعاً،

وكنتُ كل يوم لذّتهُ(93)".

ولا يزال سفر أيوب يتغنى بفرح متفاخر للخلق، عندما أشار يهوه إلى الحيوانات الضخمة حال إنجازه العمل على خلقها:

"انظر إلى بهيموث،

الذي صنعته معك،"

....

"إنه أعجبُ كل الخلائق،

ولا يقدر أن يهزمه إلا الذي خلقه(94)".

إذن، ولغاية زمن أيوب، ظل يهوه منتشياً بقوة خلقه الهائلة وعظمتها. وبالمقارنة مع شعوره العارم بالنشوة، ستتضاءل أحزان البشر، وخدع الشيطان، وأولئك الذين خلقوا مع البهيموث، حتى إن كانوا على صورة الله. ويظهر أن يهوه قد نسي هذه الحقيقة مطلقاً، وإلاّ لما وجّه عاصفة غضبه إلى أيوب، وأهان كرامته الإنسانية.

ومع الاستعداد الحذر وبعيد النظر بانتظار ميلاد المسيح، بدا واضحاً أن المعرفة الكلية أخذت تترك أثرها الواضح على أفعال يهوه. كما لم تخفِ النزعة الإنسانية والكونية نفسها. وبات الآن "بنو اسرائيل" يحتلون المرتبة الثانية مقارنة مع "بني الإنسان"، وما سمعنا عن مواثيق جديدة بعد أيوب. كذلك دخلت الأمثال والأقوال المأثورة ضمن روتين الحياة اليومية، وظهر شيء جديد حقاً

في المشهد هو الاتصال التنبؤي. وهذا ما يشير إلى أفعال معرفة ميتافيزيقية، تجمع محتويات اللاشعور الجاهزة الآن للتكسر والدخول إلى الوعي. ونحن هنا نتبين يد المساعدة التي مدتها صوفيا.

وإن اعتبرنا أن تصرف يهوه، حتى عودة ظهور صوفيا، مرتبط ببعضه البعض، فستصدمنا حقيقة لا شك فيها، تقضي بأن أفعاله تفتقر إلى الوعي، وقد افتقدنا فيه مرة بعد مرة التأمل والاحترام للمعرفة الكلية. وما بدا لنا وعيه أكثر من مجرد إلمام بدائي لا يعرف التفكر أو الأخلاق، فيبدو كأنه شخص يلاحظ ويتصرف بتهور، ودون استيعاب للموضوع، كما أن وجوده الفردي لا يثير لديه الأسئلة. وفي يومنا الحاضر سنسمي حالة سيكولوجية كهذه "لاوعي"، وفي نظر القانون فسوف يكون الاسم "فاقد قواه العقلية". وللحقيقة، إن لم يؤدِ الوعي أفعالاً تفكيرية، فلن يثبت أن الأفعال التفكيرية ليست موجودة. فهي تخطر فقط في حالة من اللاوعي، وتُشعر المرء بوجودها بشكل غير مباشر أثناء النوم والرؤى والمكاشفات والتبدلات الفطرية للوعي، والتي تخبرنا طبيعتها بأنها مستمدة من المعرفة اللاواعية، وأنها نتيجة الأفعال أو الأحكام أو الاستنتاجات اللا واعية.

يمكن ملاحظة مثل هذا السياق أثناء التبدل الغريب الذي طرأ على سلوك يهوه بعد حادثة أيوب. ما من شك في أن يهوه لم يعِ مباشرة حجم الهزيمة الأخلاقية التي مُني بها على يد أيوب. ولقد كانت معرفته الكلية قد عرفت هذه الحقيقة منذ الأزل، ومن المحتمل أن تكون معرفته اللاواعية بها قد أوصلته إلى موقع يعامل منه أيوب بتلك الخشونة، حتى يصبح هو نفسه واعياً لشيء ما من خلال هذا الصراع، ويكتسب بهذا بصيرة جديدة. وكان الشيطان، والذي حمل من بعد اسم "لوسيفر" لأسباب مقنعة، يعرف دوماً كيف يستفيد من المعرفة الكلية خيراً مما كان يفعل أبوه([95](#)). ويبدو أن الشيطان هو الوحيد من أبناء يهوه الذي تمكن من تطوير هذه المبادرة بشكل كبير. وبكافة الأحوال، كان هو من وضع أمام يهوه تلك الأحداث المفاجئة التي كانت المعرفة الكلية تعلم بأنها ضرورية ولا بديل عنها، لتتكشف فصول الدراما الإلهية، وتأتي إلى ختامها. ومن بين هذه الأحداث كانت حالة أيوب مسألة حاسمة، وما كان لها أن تحدث لو لم يبادر الشيطان.

كان انتصار المهزوم والمضطهد واضحاً: فأيوب يقف في مكانة أعلى أخلاقياً من يهوه، ومن هذا الجانب تفوق المخلوق على الخالق. وكما هي العادة عندما يتطرق حدث خارجي إلى بعض المعرفة اللاواعية، فإن بإمكان هذه المعرفة أن تصل إلى الوعي. ويُعرف هذا الحدث باسم الرؤية الاستباقية ([96](#)) Va Dèjà، حيث يتذكر المرء معرفة مسبقة حول الحدث، ولا بد أن أمراً كهذا حدث ليهوه، ولم يعد ممكناً التغاضي عن تفوقه. والآن ظهر وضع جديد، ما يعني أن تأملاً حقيقياً أضحى مطلوباً، وهو ما استدعى تدخل صوفيا، لتعيد التأكيد على ضرورة التأمل الذاتي، وبالتالي يغدو قرار يهوه بأن يصبح إنساناً، ممكناً، وإن يكن قراراً كهذا محفوفاً بالعواقب. فيهوه يرفع نفسه فوق مستوى وعيه السابق والبدائي، ليعترف بشكل غير مباشر بأن الإنسان أيوب أسمى منه أخلاقياً، ولهذا السبب بالتحديد عليه أن يلحق به ويصبح بشرياً مثله، وهو لو أنه لم يتخذ هذا القرار، لكان وجد نفسه في تناقض فاضح مع معرفته الكلية. ولأن يهوه ارتكب خطأ بحق إنسان ما، فالآن يتوجب عليه أن يصبح إنساناً بالتحديد. ولأن يهوه هو حارس العدالة، فإنه يعلم بوجود كفّارة لكل خطأ، وأن الحكمة تعرف أن القانون الأخلاقي فوق الجميع بمن فيهم هو نفسه. ولأن مخلوقه قد تجاوزه، فلا مفر أمامه من أن يلد نفسه من جديد.

وبما أن لا شيء يحدث دون وجود نمط مسبق الوجود، بما في ذلك الخلق من العدم ex nihilo، والذي دائماً ما يلجأ إلى خزينة الصور الأبدية في عقل "العامل الخبير" المذهل، فقد وقع اختيار النموذج للابن الذي يوشك أن يُولد ما بين آدم (إلى حد ما)، وهابيل (إلى حد كبير). وتكمن محدودية آدم في حقيقة أنه، على الرغم من أنه الإنسان الأصلي، فهو بشكل رئيسي مخلوق وأب، بينما تكمن ميزة هابيل في أنه الابن الأثير لدى الله، وُلدَ ولم يُخلق مباشرة. والنقيصة الوحيدة التي يجب أن نتقبلها برحابة صدر هي أنه لاقى حتفه بصورة عنيفة، وفي وقت مبكر، بل في وقت مبكر للغاية ليترك وراءه أرملة وأبناء، وهذا هو المصير البشري إذا عُيش حتى النهاية. لكن هابيل ليس النموذج البدئي archetype الأصلي للابن الأثير لدى الله، بل هو نسخة عنه، وهو الأول من نوعه الذي صادفناه في الأسفار المقدسة. ومن ناحية أخرى فإن صيغة الإله الذي يتوفى شاباً مشهورة في الأديان الوثنية المعاصرة، وكذلك الأمر بالنسبة لنمط الأخ القاتل. ولسنا بمخطئين إذا ما افترضنا أن قدر هابيل يتضمن إشارة إلى حدث ماورائي حدث من قبل بين الشيطان وأحد أبناء الله، ذي طبيعة نورانية، وأكثر إخلاصاً لوالده. كما ينقل لنا التراث المصري معلومات حول هذه النقطة: حوروس وسيث. وكما سبق لنا القول لا يمكن تجاهل النقيصة المسبقة في نموذج هابيل، فهي جزء لا يتجزأ من دراما الابن الأسطوري، كما تبيّن أنماط وثنية متنوعة لا حصر لعددها. كذلك يمكن توظيف السبيل الدرامي القصير في قدر هابيل كنموذج ممتاز لحياة وموت إله صار إنساناً.

ومختصر الكلام: يكمن السبب المباشر للتجسّد في ارتقاء أيوب، أما غايته فهي التمايز في لاوعي يهوه. ونظراً لأن وضعاً بهذه الخطورة المتطرفة كان مطلوباً، فإن تغيير حاد في الموقف ومفعم بالمشاعر، سيتعذر بدونها الوصول إلى مستوى أعلى من الوعي.

VII

إضافة إلى هابيل، على اعتباره نموذجاً للولادة الوشيكة لابن الله، علينا الأخذ بعين الاعتبار النموذج العام لحياة البطل التي ترسخّت منذ الأزل ووصلتنا بالموروث، بما أن هذا الابن لم يكن معدّاً لأن يكون مجرد مسيح قومي، بل مخلّصاً للبشرية جمعاء. وكذلك علينا أيضاً الأخذ بعين الاعتبار الأساطير الوثنية والمكاشفات التي تُعنى بحياة الوحيد الذي اصطفته الآلهة.

بناءً على ما تقدم، فإن ميلاد المسيح يتسم بكافة الظواهر غير الاعتيادية المصاحبة لميلاد بطل، مثل البشارة، والولادة الإلهية من عذراء، ومصادفة يوم ميلاده مع التكرار الثلاثي للاتحاد الأقصى في برج الحوت، والذي يفتتح في تلك اللحظة المحددة بداية عهد جديد، والاعتراف بمولد ملك، واضطهاد المواليد الجدد، وهروبه وإخفائه، وميلاده المتواضع، إلخ. إن نموذج نشأة البطل واضح في حكمة الطفل ابن الثانية عشرة عاماً في الهيكل. بالإضافة إلى وجود بضعة أمثلة في الإنجيل على استقلاله عن والدته.

وغني عن القول أن هنالك اهتماماً خاصاً يرتبط بشخصية وقدر ابن الله المتجسّد، ومن على مسافة ألفي سنة تقريباً، فمن الصعوبة البالغة إعادة بناء صورة سيرية للمسيح استناداً على الموروث المحفوظ، إذ ليس هناك نص واحد يفي بأدنى متطلبات العصر الحديث في كتابة التاريخ. فالحقائق التاريخية القابلة للتأكيد هي إلى حد بعيد غير كافية، والمادة السيرية القليلة، والصالحة، الموجودة لدينا بدورها غير كافية لنتمكن من تأليف سيرة متماسكة منها، أو حتى تأليف سيرة لشخصية احتمالية. لقد اكتشف بعض اللاهوتيين السبب الرئيس وراء هذا الأمر، والذي يكمن في الحقيقة القائلة أنه لا يمكن فصل ببليوغرافيا وسيكولوجية المسيح عن قيامته. وهنا تعني القيامة أن المسيح هو إله وإنسان في آن معاً، وأنه يلاقي المصير الإلهي والبشري.

تتداخل طبيعتا المسيح مع بعضهما البعض بشكل كامل بحيث تصبح أية محاولة لفصلهما عن بعضهما تشويهاً لهما معاً. فالإلهي يسدل بعتمته على البشري، والكائن البشري عصي على الفهم بشخصه التجريبي. حتى الإجراءات الدقيقة لعلم النفس الحديث لا تكفي لإلقاء الضوء على كافة جوانب الغموض. وكل محاولة للإشارة إلى سمة واحدة محددة بقصد توضيحها، تضر بسمة أخرى بذات الأهمية سواء لناحية إلهيته أو إنسانيته. ويتشابك المألوف مع العجائبي والأسطوري حتى أننا لم نعد أكيدين من حقائقنا. ولعل الأمر الأكثر إقلاقاً وإرباكاً بينها جميعاً، هو أن الكتابات الأولى، سيما ما كتبه القديس بولس، لا تبدو على أنها تعير وجود المسيح ككائن بشري أدنى اهتمام. وبدرجة مماثلة، فإن الأناجيل الاتفاقية(97) لا تشعرنا بالرضى، لأنها تحمل صفة الدعائية أكثر من الببليوغرافيا.

وفيما يتعلق بالجانب الإنساني للمسيح، إن كان باستطاعتنا الحديث عن جانب "إنساني صرف"، فإن أكثر ما يظهر هو محبته للبشرية، وملمح هذه المحبة متضمّن في العلاقة ما بين مريم وصوفيا، بخاصة في ما يتعلق بنشأة المسيح بواسطة الروح القدس الذي مثلت طبيعته الأنثوية في صوفيا، فهي الشكل التاريخي الأولي للروح القدس الذي ترمز إليه الحمامة، أي الطائر الذي ينتمي إلى إلهة الحب. علاوة على ذلك، فإن إلهة الحب، وفي معظم الحالات، هي أم لإله يموت شاباً.

وبجميع الأحوال فإن حب المسيح للبشرية مقيّد، بدرجة كبيرة، إلى نزعة قدرية تسبب له في بعض الأحيان إمساكاً عن رسالته الخيّرة في وجه أولئك ممن لا ينتمون إلى النخبة.

ولو نظرنا إلى مبدأ القدرية حرفياً، فسيكون من الصعب وضعها في إطار رسالة المسيح. لكن، إن نظرنا إليها سيكولوجياً، كوسيلة لتحقيق الأثر المحدد، فيمكن بيسر استيعاب أن هذه الإلماعات للقدرية تمنح شعوراً بالتميز. وإن عرف المرء أن الاختيار والنية الإلهيين قد اصطفياه منذ بدء العالم، فسيشعر بسموه لما بعد فناء وزوال الوجود البشري العادي، وسيدرك أنه انتقل إلى حالة جديدة من التبجيل والأهمية، مثل شخصية تلعب دوراً في دراما العالم الإلهي. وبهذه الطريقة يزداد الإنسان قرباً من الله، ما يتفق تماماً مع معنى الرسالة الواردة في الأناجيل.

إلى جانب محبته للبشرية، نرى انتقاداً واضحاً في شخصية المسيح. وكما هو الحال عندما يتعلق الأمر بأشخاص ذوي انفعالات عاطفية، فإن هنالك نقصاً جلياً في قدرته على تأمل الذات. إذ ليس من دليل يبيّن أن المسيح طرح على ذاته أسئلة، أو واجه نفسه، مع استثناء وحيد بالغ الأهمية لهذه القاعدة، هو صرخته اليائسة على الصليب: "يا إلهي، يا إلهي، لماذا تخليت عني؟" وهنا تحقق طبيعته البشرية الألوهة. في تلك اللحظة تحديداً يختبر الله معنى أن يكون إنساناً فانياً، وأن يتجرع حتى الثمالة من كأسٍ أسقاها لعبده المخلص أيوب. ها هنا تأتي الإجابة على سؤال أيوب. من الواضح أن هذه اللحظة السامية هي إلهية بقدر ما هي إنسانية، وهي أخروية بمقدار ما هي سيكولوجية. أيضاً في هذه اللحظة بالذات، ومع شعور المرء بالوجود البشري بالمطلق، تحضر الأسطورة الإلهية بقوة خالصة، وكلا الأمرين يحمل المعنى ذاته. فكيف يمكننا بعد ذلك ألاّ نؤسطر شخص المسيح؟ إن كل محاولة عقلانية من هذا النمط ستمتص الغموض المحيط بشخصيته، وما سوف يتبقى بعد ذلك، لن يكون مولد إله وقدره التراجيدي، بل، من الناحية التاريخية، معلماً دينياً تم التوثيق له بصورة غير دقيقة، أو مصلحاً يهودي تم تأويل تعاليمه برداءة، ولم يُفهم بالصورة الصحيحة، مثل فيثاغورس، أو بوذا أو محمد، لكن بالتأكيد ليس مثل ابن الله، أو تجسّد لله. كذلك لا يبدو أن أحداً أدرك ما هي الآثار التي ستتركها إزالة الآخروية عن المسيح. واليوم لدينا علم نفس تجريبي لا يزال قائماً على الرغم من حقيقة أن اللاهوتيين سعوا جهدهم لتجاهله، وبمساعدته سيكون بمقدورنا وضع بعض مقولات المسيح تحت المجهر. وإن تم تحرير هذه المقولات من محتواها الأسطوري، فلن يمكن تفسيرها إلاّ فردياً. لكن ما هو نوع النتائج التي يمكننا الوصول إليها عندما تقتصر مقاربة مقولة ما مثل: "أنا هو الطريق والحق والحياة. لا يأتي أحد إلى الآب إلاّ بي(98)" بالتحليل النفسي الفردي؟

من الواضح أن نفس النتيجة وصلها أقارب المسيح، عندما قالوا بجهلهم للأخروية: "أنه فقد صوابه(99)". فما هو نفع الدين بلا أسطورة، فإن كان الدين يعني شيئاً ما على الإطلاق، فهو يعني تحديداً تلك الوظيفة التي تعيدنا إلى الأسطورة الأزلية.

وفيما يتعلق بهذه المستحيلات العجيبة، نشأ افتراض بأن المسيح لم يتعدَ كونه أسطورة، وربما في حالة كهذه ليس أكثر من حكاية، بل لعله كان نتيجة لنفاذ صبر متزايد تجاه المادة الحقيقية الصعبة. لكن الأسطورة ليست حكاية: فهي تتألف من حقائق تتكرر باستمرار، ويُمكن رؤيتها مرة تلو الأخرى. إنها شيء يحدث لإنسان، ولأناس ذوي أقدار أسطورية، تماماً كما هو حال أبطال الإغريق.

وحقيقة أن حياة المسيح هي أسطورة على الغالب لا تفيد على الإطلاق لعدم إثبات حقيقتها الواقعية، بل على العكس تماماً. فأنا سأذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، بالقول إن الشخصية الأسطورية لحياة ما هي تماماً ما يعبّر عن صلاحية طبيعتها البشرية الكونية. ومن الممكن تماماً أن يتمكن اللاوعي أو النموذج البدئي، على المستوى السيكولوجي، من الاستيلاء الكامل على إنسان، وتقرير مصيره وصولاً إلى أدق التفاصيل.

وفي الوقت نفسه، يمكن أيضاً حدوث ظواهر موازية موضوعية لانفسية، تمثّل بدورها النموذج البدئي. فهي لا تبدو فقط كذلك، بل هي بكل بساطة كذلك. فالنموذج البدئي لا يحقق ذاته فقط على المستوى النفسي لدى الفرد، لكن أيضاً بشكل موضوعي من خارج الفرد. وحدسي الشخصي يخبرني أن المسيح كان شخصية فذة من هذا النمط، فجاءت حياته تماماً كما يجب أن تكون حياة إله وإنسان معاً. إنها ترميز وتوليفة من الطبائع المتباينة، لكأنها دمج ليهوه وأيوب في شخصية واحدة. إن نية يهوه لأن يصبح إنساناً، والتي نجمت عن صدامه مع أيوب، تحققت في حياة المسيح وآلامه.

VIII

عندما يعود المرء بذاكرته إلى أفعال الخلق الأولى، سيتساءل حول مصير الشيطان وأفعاله التخريبية، حين قام بذر الزوان مع الحنطة في كل مكان. كذلك سيرتاب المرء بأن يد الشيطان قد وصلت إلى مجزرة هيرودس ضد الأطفال الأبرياء. والأمر المؤكد لنا هنا هو محاولته إغواء المسيح للعب دور الحاكم الدنيوي. وبالتوازي، فإن الحقيقة الواضحة، كما أثبتت بالبرهان القاطع ملاحظات إنسان مسّته الشياطين، تقول بأن الشيطان على معرفة كاملة بطبيعة المسيح، كما يبدو كأنه أوحى ليهوذا، وبمعزل عن قدرته، بأن يؤثر في أو يحول دون ميتة الفداء.

فمن ناحية، يمكن أن يعود تفسير عدم نجاعة خططه المتكررة إلى الاستعدادات الحذرة للميلاد الإلهي. ومن ناحية أخرى، فقد يعود ذلك إلى الظاهرة الميتافيزيقية الغريبة التي شهدها المسيح: "لقد رأيتُ الشيطان وهو يهوي من السماء مثل البرق(100)". في هذه الرؤيا يتحول حدث ميتافيزيقي إلى حدثٍ دنيوي، وهذا ما يتضمن فصلاً نهائياً وتاريخياً ـ على حد علمنا ـ بين يهوه وابنه المظلم. لقد نُفي الشيطان من السماوات ولم تعد أمامه أية فرصة لتضليل والده في مشاريع مريبة، ولعل هذه الحادثة تفسر بوضوح ضآلة دوره أينما يظهر في تاريخ التجسّد. ولا يمكن مقارنة دوره هنا مع علاقته السابقة الخاصة بيهوه. من الواضح أن الشيطان خسر المحبة الأبوية وبات منفياً الآن، وقد لحق به العقاب الذي افتقدناه في قصة أيوب، وذلك على الرغم من كونه عقاباً محدوداً إلى حدٍ يدعو للاستغراب. وعلى الرغم من نفيه من البلاط السماوي، إلاّ أنه احتفظ بسلطانه على العالم ما دون القمري، وهو لم يُقذف إلى الجحيم من فوره، بل إلى الأرض، ولن يتم حبسه إلاّ مع نهاية الزمان، حيث تنتهي فاعليته تماماً.

لا يمكن إلقاء تهمة موت المسيح على الشيطان، لأنه، وعلى الرغم من التصور المسبق، كما في موت هابيل والآلهة اليافعة الأخرى، فإن ميتة الفداء كانت مصيراً اختاره يهوه استعداداً للضرر الذي أصاب أيوب من جهة، ومن جهة أخرى، فهو دفعة خفيفة لتطور الإنسان الأخلاقي والروحي. وما من شك في أن أهمية الإنسان قد ارتفعت بشكل ملحوظ لدى الله، إذ تكرّم هو شخصياً ليصبح إنساناً.

وكنتيجة لعزل الشيطان الجزئي، كان أن توحّد يهوه مع جانبه المضيء وأصبح إلهاً خيّراً، وأباً محباً. لكنه لم يقلع عن نوبات حنقه نهائياً، فهو لا يزال يُنزل عقاباته بالبشر، لكنه أضحى يفعل ذلك بطريقة عادلة، ومن الواضح الآن أنه لم يعد ممكناً توقع حدوث مآسٍ مثل مأساة أيوب. لقد أثبت يهوه أنه مفطور على المحبة والكرم، وأظهر رحمة بأبناء بني البشر الخطاة، وأضحى متماهياً مع الحب ذاته. لكن، وعلى الرغم من ثقة المسيح الكاملة بأبيه، بل وبأنهما كينونة واحدة، إلاّ أنه لم يقدر على منع نفسه من تقديم التماسٍ وإنذار في صلواته إلى الله: "ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجّنا من الشرير"، وهذا طلبٌ صريحٌ من الله ألاّ يغوينا بارتكاب الشرور، بل أن يُبعدنا عنها. إذ لا تزال احتمالية عودة يهوه إلى أساليبه السابقة تلوح في الأفق، ولا يزال يتوجب على المرء أخذ حذره، وذلك على الرغم من كافة الاحتياطات التي تم اتخاذها ونيته المعلنة بأن يصبح الخير المطلق.

وبأية حال، فإن المسيح يجد أنه من المناسب تذكير والده بنوازعه التخريبية تجاه البشرية، ويرجوه أن يقلع عنها. ففي نهاية الأمر، وبمقاييس البشر، من الظلم، وبمنتهى اللاأخلاق حقاً، إغراء الطفل الصغير بالقيام بأمر ما قد يشكل خطراً عليه، فقط لإخضاعه لاختبار متانة منظومته الأخلاقية. وبخاصة عندما يكون الفرق بين الطفل الصغير والإنسان الناضج هو أكثر ضآلة، وبما لا يقاس، عن الفرق بين الله ومخلوقاته، وبخاصة عندما يكون ضعفها الأخلاقي غير خافٍ عنه. ولو لم يكن دعاءٌ ورد في صلاة المسيح، لكنا اعتبرناه مجرد تجديف بما فيه من تناقض هائل. فهنا حقاً لا يمكن نسب مثل هذا السلوك المتناقض إلى إله الحب والخير المطلق.

والحق، إن الدعاء السادس يحمل المرء على التأمل العميق. ففي وجه هذه الحقيقة، أصبح يقين المسيح المؤكد فيما يتعلق بشخصية أبيه موضع تساؤل. ولسوء الحظ، فمن التجارب الشائعة تُلقى التوكيدات الإيجابية والقاطعة بشكل خاص، وكلما لاحت شكوك خفيفة في الخلفية سعينا إلى إخفائها. وعلى المرء الاعتراف بأنه سيكون مناقضاً لكافة التوقعات العقلانية الافتراض بأن يهوه، وبسبب كرمه الباذخ، كان عرضة لنوبات غضب متقطعة ومدمرة في نفس الوقت، منذ بداية الأزمان، وبإمكانه فجأة أن يصبح نسخة مصغرة عن الخير كله.

إن ريبة المسيح غير المعترف بها، والواضحة في هذا الخصوص، مثبتة في العهد الجديد، وبخاصة في رؤيا يوحنا، حيث يسلّم يهوه نفسه مرة ثانية إلى عنف غير مسبوق لتدمير النوع البشري، فلم يترك منه على قيد الحياة سوى أربعة وأربعين ألفاً ومائة ألف(101).

ويتوه المرء حقاً في الربط ما بين رد فعل كهذا، مع سلوك أب محب يُتوقع منه أن يبجّل خليقته بالصبر والمحبة. حتى ليبدو أن محاولة تأمين نصر أخير ومطلق بصورة نهائية، ترتبط بشكل وثيق بتراكمٍ خطيرٍ للشر وصولاً منه إلى الكارثة. وإذا ما قورنت نهاية العالم بدمار سدوم وعمورة، أو حتى طوفان نوح، فإنهما ستبدوان مجرد لعبتي أطفال، ففي النهاية ستتحول الخليقة بأسرها إلى شظايا. ونظراً لأن الشيطان، والذي كان مسجوناً لمدة طويلة، سوف يُهزم ويطرح في بحيرة النار(102) فمن الصعوبة بمكان اعتبار أن نهاية العالم هي أمر من عمل الشيطان، ولا بد أنها من "عمل الله"، بل ودون وجود تأثير للشيطان فيها.

ولكن لا تعتبر نهاية العالم، والمسبوقة بظروف معينة كانتصار المسيح على الشيطان (وهي ضربة الانتقام لهابيل من أخيه قايين) نصراً حقيقياً، إذ قبل أن يحدث هذا سوف نتوقع تجلياً أخيراً وقوياً للشيطان. فلا يمكن للمرء افتراض أن الشيطان سيتقبل بكل هدوء مسألةً مثل تجسّد الله في المسيح، إذ لا بد أن هذا الأمر يثير غيرته إلى أقصى حد يمكن توقعه، ما يستدعي فيه رغبة لتقليد المسيح (وهو الدور الذي يلائمة تماماً بصفته "الروح المضادة"). وهكذا سوف يتجسّد بدوره كإله مظلم، وكما نعرف، فإن عدداً لا يحصى من الأساطير قد حيكت حول هذه الثيمة. وسوف توضع هذه الخطة موضع التنفيذ من قبل الشخصية المضادة للمسيح "عدو المسيح"، بعد انقضاء الألف سنة المقدّرة، وهي المدة الزمنية التي حددها المنجمون لحكم المسيح.

ترد هذه النبوءة في العهد الجديد، وتكشف عن شكٍ في النهاية الفورية أو الفاعلية الكونية لعمل الخلاص. ولسوء الحظ، لا بد لنا من القول إن هذه التنبوءات قد أفسحت المجال أمام مجاهرات رعناء، لم يسبق تناولها، مع جوانب أخرى لعقيدة الخلاص، ناهيك عن انسجامها معها.

IX

وإنني أذكر هذه الأحداث المستقبلية الرهيبة لتفسير الشك الذي تم التعبير عنه مداورة في الدعاء السادس من صلاة المسيح (ولا تدخلْنا في التجربة...)، لا لأعطي تفسيراً شاملاً لسفر الرؤيا، وسوف أعود إلى هذه الفكرة لاحقاً. لكن، وقبل القيام بذلك، لا بد من العودة إلى بحث كيفية ارتباط المسائل بالتجسّد بعد موت المسيح. لطالما تم تلقيننا أن التجسّد هو حدث تاريخي فريد، ولا يُتوقع أن يتكرر تماماً كما لا يتوقع أن يتكرر انكشاف اللوغوس/الكلمة، والذي كان متضمناً بفرادة ظهور الله على الأرض على هيئة البشر منذ ما يقارب الألفي عام خلت، ومصدرنا الوحيد للوحي، وبالتالي للحكم النهائي، هو الإنجيل. فالله هو مرجعية فقط فيما يتعلق بكتابة العهد الجديد، ومع اختتام العهد الجديد فإن الاتصال الأصيل مع الله سينقطع. هذه هي وجهة نظر الكنيسة البروتستانتية، أما الكنيسة الكاثوليكية، وهي الوريث المباشر والمتواصل للمسيحية التاريخية، فقد أثبتت أنها، وبدرجةٍ ما، أكثر حذراً فيما يتعلق بهذا الشأن، إيماناً منها بأنه ـ وبمساندة الروح القدس ـ يمكن أن تتطور الدغمائية وتتكشف بشكل متواصل. وتنسجم وجهة النظر هذه تماماً مع تعاليم المسيح حول الروح القدس، ومن هنا فإنها تنسجم أيضاً مع استمرارية التجسّد. فالمسيح يعلّم أن كل من يؤمن به، أي إنه يؤمن عموماً، فلنقل بأنه ابن الله، بإمكانه أن "يعمل الأعمال التي أنا أعملها، بل يعمل أعظم منها(103)".ويذكّر تلاميذه بقوله لهم "إنكم آلهة (104)". والمؤمنون أو المختارون هم أبناء الله و"شركاء المسيح في الإرث(105)". وعندما يغادر المسيح مسرح الأرض، فسوف يطلب من أبيه أن يرسل إلى قومه ناصحاً (فارقليط) "يبقى معكم إلى الأبد(106)"، هو "الروح القدس" الذي سيأتي من قبل "الآب ". وهو "روح الحق" الذي سيعلّم أتباعه "كل الأشياء"، ويرشدهم إلى "الحق كله(107)". وتبعاً لهذا، فإن المسيح يتخيل إدراك الله المتواصل بأبنائه، أي بإخوانه وأخواته في الروح، وبالتالي لن يتم اعتبار أعماله بالضرورة هي الأعظم.

ولكون الروح القدس هو الشخص الثالث في الثالوث المقدس، والله حاضر في كل جزء من الأجزاء الثلاثة في نفس الوقت، فإن إقامة الروح القدس تعني اقتراب المؤمن من حالة ابن الله. ومن هذا المنطلق بإمكان المرء فهم مقصد المسيح عندما يقول لتلاميذه: "أنتم آلهة". إن الأثر التأليهي للروح القدس تدعمه بصورة طبيعية صورة الله التي طبعت النخبة. والله، على شكل الروح القدس، يقيم في الإنسان كونه يعتقد بشكل واضح أنه يحقق ذاته باستمرار، ليس في سلالة آدم فحسب، بل وفي عدد غير محدود من المؤمنين، ومن المحتمل في البشرية بأسرها. ودلالات هذا الأمر ظاهرة في حقيقة تشبيه قوم ليسترا كلاً من برنابا وبولس بزيوس وهرمز: "اتخذ الآلهة صورة بشر ونزلوا بيننا(108)". وما من شك بأن هذا القول قد عبّر عن أكثر الأفكار الوثنية سذاجة حول تحوّل المسيحية، لكنه مقنع لهذا السبب تحديداً. ومن المؤكد أن ترتوليان كان يعتقد بشيء من هذا القبيل عندما وصف السمو الإلهي كنوع من المعين للألوهة "والذي جعل الآلهة من البشر(109)".

يتطلب تجسّد الله في المسيح الاستمرارية والإتمام، لأن المسيح لم يكن كائناً بشرياً تجريبياً، كونه ولد من عذراء، وهو براء من الخطيئة. وكما جاء في الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا، فإنه يمثل

النور الذي يضيء في الظلمة، ورغم ذلك لا يمكن للظلمة إدراكه. لقد بقي خارج إطار البشرية وفوقها. في حين كان أيوب إنساناً عادياً، فحلّ به الأذى، ومن خلاله انتقل إلى باقي البشر، وكان ممكناً بالنسبة له فقط، وتبعاً للعدالة الإلهية، أن ينال تعويضاً عما لحق به من أذى بأن يتجسد الله في كائن بشري تجريبي. ويتم فعل الكفارة هذا من قبل الفارقليط، إذ، وكما يجب أن يعاني الإنسان من الله، فالله يجب أن يعاني من الإنسان. وإلاّ فلن يكون هنالك من مصالحة بينهما.

من الحق أن التأثير المباشر والمتواصل للروح القدس على أولئك الذين يُدعون بأبناء الله هو عملية توسعة للتجسّد. فالمسيح المولود من الله هو المولود الأول الذي تلاه عدد يتزايد باستمرار من إخوة وأخوات صغار. لكن هؤلاء الإخوة والأخوات ما أنجبهم الروح القدس ولا ولدتهم العذراء. وقد يضر هذا بحالتهم المتيافيزيقية، لكن مجرد كونهم ولدوا بشراً لا يعني بالضرورة أن ذلك سيعرّض للخطر آمالهم في الوصول إلى مقام شرف في البلاط السماوي، وكذلك لن تتقلّص قدراتهم على القيام بمعجزات، كما لن يمنعهم تواضع منبتهم (ولعله من الثدييات) من الدخول في صلة قرابة وثيقة مع الله بصفته أبيهم، والمسيح بصفته أخيهم. والحق أن هذه القرابة، بالمعنى المجازي، هي حقاً "قرابة دم"، كونهم تلقّوا حصتهم من دم المسيح وجسده، وهذا يعني ما هو أكثر من مجرد التبني. إن هذه التغييرات العميقة على حالة الإنسان، هي نتيجة مباشرة لفعل الفداء الذي قام به المسيح. فالفداء، أو الخلاص، ذو أوجه عديدة ومختلفة، أكثرها أهمية هي الكفّارة التي دفعها المسيح عن خطايا البشر بتضحيته بنفسه، وطهّرهم بدمه من عواقب الخطيئة. لقد أصلح ما بين الله والإنسان، وأنقذه من الحنق الإلهي الذي يحوم فوق رأسه مثل القدر، كما خلصه من اللعنة الأزلية.

من الجلي أن أفكاراً كهذه لا تزال ترسم للإله صورة الله ـ الأب مثل يهوه الخطِر، الذي لا مفر من استعطافه. وكان من المفترض أن يمنحه الموت المرتّب مسبقاً لابنه بعض الرضا للإهانة التي لحقت به، وبسبب هذه "الإهانة المعنوية" صار بإمكانه الجنوح إلى انتقام شديد. ومن جديد يروعنا الموقف المتناقض لخالق الكون تجاه مخلوقاته التي لم تسلك حتى لمرة واحدة سلوكاً يوافق توقعاته، وهذا ما يغمّه. ويمكن تشبيه الموقف هنا بأن أحداً ما زرع "بكتيريا"، ثم اتضح له أنها باءت إلى فشل ذريع، فأخذ يلعن حظه، إلاّ أنه لم يبحث عن سبب الفشل، بل أخذ يسعى إلى عقاب البكتيريا معنوياً على فشله هذا. ترى أما كان حريّاً به اختيار بيئةً أكثر ملاءمةً لزراعتها؟

يتناقض سلوك يهوه مع مخلوقاته مع كافة متطلبات ما يدعى بـ "المنطق الإلهي"، والذي يفترض به أن يميز الإنسان عن الحيوان. وزيادة على ذلك، فإن عالِم البكتيريا يمكنه أن يخطئ في اختيار بيئة زراعة البكتيريا فقط لكونه بشراً، لكن الإله وبما يمتلكه من المعرفة الكلية لا يمكنه الوقوع في خطأ كهذا، إذ ما عليه سوى التشاور مع معرفته الكلية. لقد زوّد يهوه مخلوقاته بقليل من الوعي، ودرجة من الإرادة الحرة تتناسب مع هذا الوعي. لكن كان عليه معرفة أنه بقيامه بهذا سيقودهم إلى غوايات الوقوع في الاستقلالية الخطرة. ولم يكن هذا الأمر ينطوي على درجة كبيرة من الخطورة لو كان الإنسان يتعامل مع إله محب وخيّر، لكن يهوه لا ينفك ينسى ابنه الشيطان الذي يقع في حبائل مكائده بين حين وآخر. فكيف به إذن أن يتوقع من الإنسان ذي الوعي المحدود والمعرفة الناقصة أن يكون أفضل؟ كذلك فإنه يتجاهل حقيقة أن الإنسان كلما امتلك وعياً أكثر، ازداد انفصاله عن فطرته التي تهبه على الأقل فكرة غامضة عن حكمة الله الخفية، وأصبح أكثر عرضة إلى ارتكاب الخطأ. وبالتالي فهو حتماً لن يكون قادراً على مواجهة مكائد الشيطان، ناهيك عن أن خالقه لم يتمكن من مواجهتها، أو ربما هو ليس راغباً بكبح هذه الروح الجامحة.

X

تلقي الحقيقة القائلة بأن لله "لا وعي" بضوء خاص على عقيدة الخلاص. فالإنسان لا يتخلص من خطاياه بالكامل، حتى إن تعمّد بحسب التقاليد الموصوفة، كي يغتسل من خطاياه، كما لا يتخلص من الخوف من عواقب الخطايا، أي من غضب الله. وبالتالي، فإن الغاية من عمل الخلاص هو إنقاذ الإنسان من الخوف من الله. وهذا الأمر ممكنٌ حتماً حين يكون إيمان الإنسان بأب محب أرسل ابنه الوحيد الذي أنجبه لإنقاذ النوع البشري، فتمكن من قمع الآثار المتكررة ليهوه القديم وتأثيراته الخطيرة. لكن مثل هذا الاعتقاد يفترض مسبقاً نقيصة التأمل، أو التضحية بالعقل، ويبدو من الممكن مناقشة إمكانية تبرير أي من الافتراضين أخلاقياً. كما لا ينبغي أن ننسى أن المسيح نفسه هو من علمنا الاستفادة القصوى من المواهب التي أودعت فينا، وألا نخفيها تحت التراب. إذ لا يجب أن نتظاهر بأننا أكثر غباءً وأكثر لا وعياً مما نحن عليه في الواقع، فنحن مطالبون من النواحي الأخرى بأن نكون حذرين وحاسمين وواعين حتى لا نسقط في الغواية، وأن نمتحن الأرواح التي ترغب بالتأثير علينا "لنرى إن كانت من عند الله أم لا (110)"، لعلنا نتعرف بذلك على الأخطاء التي نرتكبها. فتجنب الوقوع في مكائد الشيطان الماكرة يتطلب ذكاء كائن بشري خارق. وهذه الالتزامات تشحذ، بشكل حتمي، فهمنا وحبنا للحقيقة ورغبتنا بالمعرفة. وبالإضافة إلى كون هذه الالتزامات هي فضائل بشرية أصيلة، فهي أيضاً تأثيرات ممكنة للروح الذي "يتقصى كل شيء، حتى أعماق الله(111)". كما أن هذه القدرات العقلية والأخلاقية ذات طبيعة إلهية، وبالتالي لا يجوز، بل لا يجب تعطيلها. وباتباع الإنسان منظومة الأخلاق المسيحية فإنه يدخل في تعارض حاد مع الواجب، وهو تعارض ليس بمقدور أحد تفاديه، إلا الشخص الخارق الذي بمقدوره جعل العدد خمسة زوجياً، لا فردياً. وحقيقة أن الأخلاقيات المسيحية تقود إلى تعارض مع الواجب، هي حقيقة لصالحها. وبإنتاجها لتناقضاتٍ عصية على الحل، وتالياً إلى "فتنة الروح"، فإنها تقرّب الإنسان من معرفة الله. إذ إن كل التناقضات هي من الله، وبالتالي على الإنسان أن ينوء تحت هذا الحمل، وبقيامه بهذا سيجد أن الله قد استحوذ عليه في "تناقضه"، وتجسّد فيه، ليصبح وعاءً ينضح بالصراع الإلهي. ونحن على حق إذ نربط ما بين فكرة المعاناة وحالة الصراع الحاد للمتناقضات، ثم نتردد في وصف مثل هذه التجربة المؤلمة على أنها "فداء". ومع ذلك لا يمكن إنكار ما في الرمزية العظيمة للإيمان المسيحي في الصليب الذي عُلّق عليه الشخص المتألم للمخلّص، وبقي محمولاً أمام أعين المسيحيين لما يقارب الألفي عام. ثم اكتملت هذه الصورة بلصين اثنين، أحدهما يذهب مباشرة إلى الجحيم، والآخر إلى الفردوس. إنما من الصعوبة بمكان تخيّل تمثيلٍ أفضل لـ "تناقض" الرمز المسيحي الأساسي. أما معرفة لماذا يجب أن يُدلّ هذا المنتج للسيكولوجية المسيحية إلى الخلاص، فهو أمر تصعب رؤيته مؤلماً، مع استثناء الإدراك الواعي للتناقض، على الرغم من أنه قد يجلب معه في لحظتها شعوراً مؤكداً بالخلاص. إنه من ناحية أولى خلاص من حالة مفجعة من اللاوعي البليد والعاجز، ومن ناحية ثانية فهو وعي متنامٍ بالتناقضات الإلهية، التي باستطاعة الإنسان المساهمة فيها لو لم يكن يُحجِم عن كونه مجروحاً بالسيف الفيصل أي المسيح.

وفقط من خلال أكثر الصراعات حدة وخطراً، يختبر المسيحي الخلاص إلى الألوهية، شريطة ألاّ ينكسر، بل يقبل بعبء كونه وُسم بعلامةٍ من الله. وبهذه الطريقة فقط تصبح صورة الله فيه، ويصبح الله إنساناً.

يجب فهم الدعاء السابع من صلاة المسيح:"لكن نجّنا من الشرّير" بنفس المعنى الذي نفهمه من صلاته في ضيعة جثسيماني حين قال: "يا أبي، إن كان ممكناً، فلتعبر عني هذه الكأس(112)". ومن حيث المبدأ، لا يبدو إعفاء الإنسان من الصراع، وبالتالي من الشر، هو مقصد الله، بل هو أمرٌ بشري صرف أن يعبّر الإنسان عن رغبة كهذه، لكن لا يمكنها أن تتحول إلى مبدأ، كونها تتعارض مع رغبة الله، وتلقي بالضوء على ضعف وخشية الإنسان. من المؤكد أنه يمكن تبرير الخوف فقط إلى الحد الذي يدع مجالاً للشك والغموض، بحيث لا تُنهك فيه قوى الإنسان، فالخوف يتمم الصراع.

ولكون صورة الله تهيمن على الفلك البشري، وتجعل النوع البشري ممثلاً لها دون موافقته، أو قد يكون الشقاق الذي وقع في الكنسية منذ 400 سنة، والانقسام الحالي في عالم السياسة إلى معسكرين عدائيين، كلتا الحالتين تعبير عن القطبية غير المدركة للنموذج البدئي المهيمن.

تعكس الرؤية التقليدية لعمل المسيح الفداء طريقة أحادية الجانب للتفكير، سواء كنا نعتبر تلك الرؤية الأحادية على أنها بشرية، أم من عند الله. والرؤية الأخرى التي لا تعتبر أن الكفّارة هي سداد الإنسان لما عليه من دين تجاه الله، بل هي تعويض يقدمه الله للإنسان بعدما ألحق به الأذى، وقد أوجزنا هذه الرؤية أعلاه. تبدو هذه الرؤية بالنسبة لي أنها تناسب أكثر موقف القوة، كما لو أنه موجود. قد يعكر الحمل صفاء الماء التي يشربها الذئب، لكنه لا يقدر على التسبب بإيذائه. وكذلك بإمكان المخلوق أن يخيب أمل الخالق، لكنه نادراً ما يتمكن من التسبب بأذية حقيقية له، فهذا يكمن فقط ضمن نطاق قوى الخالق تجاه المخلوق عديم الحيلة. ومن هذا المنطلق فإن خطأً ينسب إلى الله، هو بالتأكيد ليس أسوأ من الخطأ المنسوب إليه أصلاً، إذا ما افترض المرء أنه كان من الضروري تعذيب الابن إلى حد الموت على الصليب فقط لإخماد غضبة الأب.

أي نوع من الآباء هو هذا الذي يؤثر أن يُذبح ابنه على أن يسامح مخلوقاته قليلة الفهم التي أفسدها شيطانه الأثير؟ وما الذي يفترض أن تمثله هذه التضحية الرهيبة بالابن؟ أهي محبة لله مثلاً؟ أم حقد؟ إننا نعلم من الإصحاح 22 من سفر التكوين، ومن سفر الخروج 22: 29 أن لدى يهوه نزوعاً لتوظيف وسيلة، مثل ذبحالابن والابن البكر(113) لامتحان إيمان شعبه، أو للتأكيد على إرادته. وذلك على الرغم من أن معرفته وقدرته الكليتين لا تحتاجان نهائياً لمثل هذه الإجراءات الهمجية التي تضيف مثالاً سيئاً للجبابرة على الأرض. ولهذا، فإنه من المفهوم أن العقل الساذج يميل إلى التهرب من أسئلة كهذه، ويعتذر عن تهربه كونه تضحية جميلة بالعقل. وإن لم يرغب المرء بقراءة المزمور التاسع والثمانين، فإن المسألة لن تنتهي هناك، فمن يُخدع مرة، يُخدع مرتين، وبالتحديد عندما يتعلق الأمر بمعرفة الذات. لكن معرفة الذات مطلوبة من قِبل الأخلاقيات المسيحية عندما تتخذ شكل اختبار الوعي. وليس أكبر تقى من الذين آمنوا بأن معرفة النفس تمهد الطريق لمعرفة الله.

XI

يستحيل على الوعي المتأمل الإيمان بأن الله هو الخير المطلق، فمثل هذا الوعي لا يشعر الإنسان بأنه تخلص، بأي شكل من الأشكال، من خوفه من الله، وبالتالي يحق له سؤال نفسه: ما الذي يعنيه المسيح بالنسبة له؟ والحق أن هذا سؤال كبير: هل لا يزال بالإمكان تأويل المسيح في يومنا وعصرنا الحاضر، أم علينا الاكتفاء بالتأويل التاريخي؟

والأمر الوحيد الذي لا ريب فيه هو أن المسيح شخصية إلهية رفيعة المستوى، وتأويله كإله وابن الله يتفق تماماً مع هذه الفكرة. أما الفكرة القديمة المبنية على نظرة المسيح إلى نفسه، فهي تؤكد أنه جاء إلى العالم وتألم ومات في سبيل خلاص البشرية من الغضب القادم. ويزيد عمّا سبق إيمانه بأن انبعاث جسده سوف يضمن لكافة أبناء الله النهاية ذاتها.

لقد سبق لنا الاستفاضة بالإشارة إلى غرابة وضع مشروع خلاص الله قيد التطبيق العملي، إذ أن كل ما قام به هو، متمثلاً في شخص ابنه، إنقاذ البشرية من نفسه، وفي هذه الفكرة ما فيها من السوقية، مثل النظرة "الربانية" القديمة القائلة بأن يهوه يخفي الصالحين تحت عرشه عندما يغضب (ليحميهم من غضبته)، حيث لا يمكنه بالتأكيد رؤيتهم. تماماً كما لو أن الإله – الآب يختلف عن الإله – الابن. لكن الأمر ليس كذلك البتة، إذ لا توجد حاجة سيكولوجية إلى افتراضٍ كهذا، نظراً لأن افتقار الله إلى وعي ذاته، كافٍ لتفسير تصرفه المحدد. وبالتالي فإن مبدأ "رأس الحكمة مخافة الله" هو مبدأ صحيح تماماً. ومن ناحية أخرى، لا يجب على المرء اعتبار أن أكثر صفات الله تبجحاً: أي الطيبة والمحبة والعدالة، على أنها مجرد استعطاف، بل يجب إدراكها كأنها تجربة أصيلة. إذ أن الله هو "مصادفة لقاء الأضداد". وكلاهما مبرر: الخوف من الله ومحبة الله.

أما الوعي الأكثر تميزاً فلا بد أن يجد، عاجلاً أم آجلاً، أنه من الصعوبة بمكان محبة إله، كأب لطيف، وفي الوقت ذاته لديه كل المبررات ليخشاه. إذ قد تنتاب هذا الإله نوبات غضب لا يمكن التنبؤ بها، ولا يمكن الاعتماد عليه، وهو ليس عادلاً، وقاسياً. لقد أثبت اندثار الآلهة القديمة، وهذا ما يرضينا، أن الإنسان لا يستسيغ تنافر وضعف الآلهة بما ينقص عن صفات البشر، ولعلّ لهزيمة يهوه الأخلاقية أمام أيوب آثارها الخفية: ارتقاءٌ غير مقصود من جهة، ومن الجهة الأخرى اضطرابٌ في اللاوعي. ولوهلة فإن الأثر الأول يبقى حقيقة مجردة، لم يدركه الوعي على الرغم من تسجيله في اللاوعي. وهذا ما يُضاف إلى الاضطراب في اللاوعي، والذي يحتاج هنا إلى طاقة أكبر من تلك الموجودة في الوعي. يعتمد الإنسان على اللاوعي أكثر مما يفعل بالنسبة للوعي. وفي هذه الأحوال، فإن الطاقة تبدأ بالتدفق من اللاوعي باتجاه الوعي، ويتفجر اللاوعي على شكل أحلام ورؤى وبوح.

لسوء الحظ لا يمكن تحديد الزمن الذي كتب فيه سفر أيوب بشكل أكيد، فكما سبق ذكره، لقد كُتب ما بين 600 و300 قبل الميلاد. وفي النصف الأول من القرن السادس، ظهر في المشهد النبي حزقيال(114)، وظهرت معه "الأعراض المَرَضية". وعلى الرغم من أن العلمانيين يميلون إلى إطلاق هذا الوصف على رؤاه، إلا أني، وبصفتي طبيب أمراض نفسية، أشدد على أن تلك الرؤى، وما يصاحبها من ظواهر، لا يمكن تقييمها على أنها مَرَضية. فالرؤى مثل الأحلام، هي حوادث

غير اعتيادية، لكنها طبيعية تماماً، ولا يمكن تشخيصها على أنها مرضية إلاً في حال إثبات طبيعتها المرضية(115). فمن وجهة نظر سريرية بحتة، فإن رؤى حزقيال هي ذات طبيعة بدئية، وليست تشوهاتٍ مرضية بأي شكل من الأشكال، كما لا يوجد سبب يدعو لاعتبارها مرضية، فهي أعراض على انفصالٍ كان موجوداً حينها ما بين الوعي واللا وعي. إن الرؤية الأولى العظيمة مؤلفة من مركّبات رباعيةٍ بالغة التنظيم، وهي مفاهيم من الكليّة، مثل تلك التي نلاحظها بصورة متكررة في هذه الأيام كظواهر عفوية. ويتمثل جوهر هذه الرؤى بشكلٍ "يشبه مظهر الإنسان(116))"، وهنا يدرك حزقيال أنه رأى المحتوى الجوهري لـ اللا وعي، بمعنى أنه رأى فكرة الإنسان الأعلى الذي هزم يهوه أخلاقياً، ولاحقاً تجسّده.

وفي الفترة نفسها في الهند ظهرت أعراض مشابهة للنزعة ذاتها لدى غوتاما بوذا (حوالي 562 ق.م)، والذي أعطى تمييزاً أقصى لأفضلية الوعي، بما يزيد عن أسمىالآلهة البراهمانية. وهذا التطور هو النتيجة المنطقية لعقيدة "بوروشا آتمان"، ومستمدٌ من التجربة الداخلية لممارسة اليوغا.

لقد استوعب حزقيال من خلال الرمز حقيقة أن يهوه يدنو من الإنسان. وهذا أمر بلغه أيوب بالتجربة، لكن من المحتمل أنه لم يصل إلى وعيه. أي إنه لم يدرك أن وعيه أعلى من وعي يهوه، وبالتالي أن الله يريد أن يصبح إنساناً. وأكثر من ذلك، نجد للمرة الأولى في حزقيال لقب "ابن الإنسان"

إننا في حزقيال نقع للمرة الأولى على لقب «ابن الإنسان»، والذي يستخدمه يهوه بشكل ملحوظ عندما يخاطب النبي، ربما لكي يومئ إلى أنه هو ابن "الإنسان" الجالس على العرش، وبالتالي فهو صورة مسبقة لظهوره في المسيح فيما بعد، وبالتالي أيضاً: من أعظم الحق أن تصبح الملائكة الأربعة "السيرافيم" الجالسة على عرش الله رمزاً للإنجيليين، كونهم يشكلون الرباعي الذي يعبر عن كليّة المسيح، تماماً كما تمثّل الأناجيل الأربعة أعمدة عرشه الأربعة.

لقد استمر اضطراب اللاوعي لقرون عديدة، وحوالي 165 قبل الميلاد، تراءى لدانيال رؤيا من أربعة وحوش و"القديم الأيام"، والذي جاءه مع سحب السماء مثل "ابن إنسان"(117). وهنا لم يعد "ابن الإنسان" هو النبي، بل ابن "القديم الأيام" بحق، وهو ابنٌ مهمته تجديد شباب الآب.

لكن سفر أخنوخ، الذي كُتب قبل مئة عام من الميلاد، يمضي إلى تفاصيل أكثر، إذ يكشف قدوم أبناء الله إلى عالم الإنسان، وهو تصور مسبق آخر لما وُصف بـ "سقوط الملائكة". على أنه تبعاً لسفر التكوين فقد صمم يهوه على أن روحه لن "تقيم في الإنسان إلى الأبد"(118)، وأن الإنسان يجب ألاّ يعيش مئات السنوات، كما كان يفعل من قبل. ومن باب التعويض، يقع أبناء الله في حب بنات الإنسان الحسناوات، مما كان هذا زمن الجبابرة. يروي أخنوخ أنه بعد تآمر مائتين من الملائكة معاً تحت زعامة شيمازاز، نزلوا إلى الأرض، واتخذوا من بنات الإنسان زوجاتٍ لهم، وأنجبوا منهن جبابرة يصل طول الواحد منهم ثلاثة آلاف ذراع (119). في حين قامت الملائكة، وظهر عزازيل بصورة خاصة بينهم، بتعليم البشر الفنون والعلوم. لقد أثبتوا أنهم عناصر بالغة التقدم، حيث تمكنوا من تطوير وتوسعة وعي الإنسان، تماماً كما مثّل قايين الشرير التطوّر، مقارنة مع هابيل ذي النزعة المحافظة. وبهذه الطريقة اتسعت أهمية الإنسان إلى أبعاد الـ "جبابرة"، ما يشير إلى تضخم في الوعي الثقافي في تلك الحقبة. لكن هذا التضخم مهددٌ على الدوام بضربة ثأرية تأتي من اللاوعي، وهذا ما حدث حقاً على شكل الطوفان. فقد عمّ الفساد الأرض قبل حدوث

الطوفان، إذ "أتلف الجبابرة جميع مقتنيات الناس"، ثم بدأوا يأكلون بعضهم بعضاً، بينما أخذ البشر بدورهم يلتهمون الحيوانات إلى أن "ضجّت الأرض بالشكوى من الأشرار".

وهكذا فإن لغزو أبناء الله عالم البشر سلسلة من العواقب التي فسرت التدابير الاحترازية التي اتخذها يهوه قبل ظهوره على مسرح الأرض. لقد كان الإنسان عاجزاً بالمطلق في مواجهة تلك القوى الإلهية العليا، وبالتالي فإنه من الأهمية بمكان معرفة كيفية تصرّف يهوه حيال هذا الأمر. بينما يبرهن العقاب الدراكوني اللاحق على أن خروج مالا يقل عن مائتين من أبناء الله من البيت الأبوي ليخوضوا تجاربهم الخاصة في عالم الإنسان، ليس حدثاً ثانوياً.

يتوقع المرء أن معلومات تتعلق بخروج جماعي كهذا لا بد أنها انتشرت عبر البلاط السماوي (وذلك بمعزل عن المعرفة الإلهية الكلية). لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، فبعد أن أنجب الجبابرة بزمن طويل، وبعد أن باشروا بذبح وافتراس بني البشر، وبمحض المصادفة، سمع أربعة من كبار الملائكة بكاء وعويل البشر، فاكتشفوا ما يجري على الأرض. هنا لا يدري المرء حقاً أيهما أكثر إدهاشاً: أهو سوء تنظيم المجتمع السماوي، أم سوء التواصل في السماء؟ وسواء كان هذا أم ذاك، فقد اضطرت الملائكة إلى الظهور في حضرة الله ومعها الخطبة المنمقة التالية:

"كل الأشياء عارية ومكشوفة أمام ناظريك

وإنك لترى الأشياء كلها، ولا يخفى عنك منها شيء

وإنك لترى ما فعله عزازائيل الذي عاث في الأرض

فساداً وباح بالأسرار التي كانت محفوظة في السماء...

[وإن شَمْيازاز قد علّم الناس السحر/، وقد

أعطيته أنت سلطاناً على جميع شركائه...

وأنت العليم بكل شيء قبل وقوعه.

وها أنتذا قد رأيت هذه الأشياء وعرفتها، لكنك

لا تقول لنا ماذا يجب علينا أن نفعل حيالها."(120)

إما أن يكون كلام كبار الملائكة كذباً، أو أن يهوه، لسبب لا يمكن إدراكه، لم يدر بالاً إلى معرفته الكلية، أو، وهذا هو الاحتمال الأقوى، كان على كبار الملائكة تذكيره ثانية بأنه فضّل إغفال معرفته الكلية. وبجميع الأحوال، فبسبب تدخلهم فقط أُطلقت الأفعال الانتقامية على مستوىً عالمي، لكنه لم يكن حقاً مجرد عقاب، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن يهوه يُغرق على وجه السرعة كافة المخلوقات الحية، باستثناء نوح وأقاربه. ويثبت هذا الفاصل أن أبناء الله هم، بشكل ما، أكثر حذراً وتطوراً ووعياً من أبيهم، وبالتالي يمكن تقييم تحوّل يهوه اللاحق بأنه الأعلى. وليست التحضيرات التي أعدّها لتجسده إلا دليلاً على تعلم أمراً ما من التجربة، وأخذ يشرع بالقيام بأشياء أكثر وعياً من ذي قبل، ومما لا شك فيه أن تذكّر صوفيا/الحكمة قد ساهم بزيادة وعيه. وعلى خط موازٍ، أصبح انكشاف البنية الميتافيزيقية أكثر وضوحاً. فبينما نجد في حزقيال ودانيال مجرد تلميحات عن الرباعي وابن الإنسان، فإن أخنوخ يعطينا معلومات واضحة وتفصيلية حول هاتين النقطتين. فالعالم السفلي، أو ما يشبه الهاديس، ينقسم إلى أربع مساحات خاوية صالحة لتكون بيوتاً لأرواح

الموتى إلى أن يأتي يوم الحساب. ثلاثة من هذه البيوت مظلم، لكن واحداً فقط مضيء ويحتوي على "نبع من الماء"(121)، إنه بيت الأخيار.

ومع إبانات من هذا النوع، فإننا ندخل حتماً في ميدان السيكولوجيا، أي رمزية المندلة(122) والتي إليها تعود النسبة 1: 3 و3: 4. إن عالم أخنوخ السفلي رباعي الأجزاء، يتوافق مع رباعية العالم الآخر، الذي يقع افتراضياً في تضادٍ أبدي مع الأثيري أو السماوي. ينسجم الأول في الخيمياء مع رباعية العناصر، والأخير مع الجانب الرباعي أو الكلي للألوهة، مثل باربلو Bqrbelo، كولورباس Kolorbas، ميركوريوس كوادراتوس Mercurius quadratus، والآلهة رباعية الأوجه.

في الحقيقة، يرى أخنوخ في رؤياه الوجوه الأربعة لله، ثلاثة منها منشغلة بالثناء والصلاة والابتهال، بينما الرابع منهمكٌ في "طرد الشياطين ومنعهم من الوصول إلى رب الأرواح واتهام الذين يقيمون في الأرض"(123).

وتكشف لنا الرؤيا عن اختلاف أساسي في صورة الله: فالله الآن هو أربعة أوجه، أو بالأحرى، أربعة ملائكة لوجهه، وهي أربعة أقانيم أو انبثاقات عنه. واحد منها منشغلٌ حصرياً بإبعاد ابنه الأكبر: الشيطان، والذي تكاثر الآن بأعداد كبيرة، بعيداً عنه، وفي الحيلولة دون تكرار تجارب من نمط تجربة أيوب(124). وبما أن سقوط الشيطان لم يحدث بعد، فالشياطين لا زالت قاطنة في أقطار السماوات.

كذلك يُشار ثانية إلى النسب المذكورة آنفاً عبر حقيقة أن ثلاثةً من الملائكة تؤدي وظائف نفعية أو إلهية، بينما الرابع هو شخصيةٌ "عسكرية" للإبقاء على الشيطان بعيداً.

وللرباعي طبيعة روحانية متميزة، وبالتالي يتم التعبير عنه بالملائكة الذين يتم تصويرهم بصورة عامة بأجنحة على ظهورهم. أي، على أنهم كائنات أثيرية. وأغلب الظن أنهم من سلالة الملائكة الأربعة "السيرافيم" التي رآها حزقيال. ويشير تضاعف الرباعي، وانشطاره إلى الربع العلوي والربع السفلي، مثل إقصاء الشياطين من البلاط السماوي، يشير إلى انشطار ميتافيزيقي وقع مسبقاً. لكن الانشطار الملئي بدوره هو أحد أعراض الإرادة الإلهية: الأب يريد أن يصبح الابن، الله يريد أن يصير إنساناً، واللا أخلاقي يريد أن يصبح طيباً بصورة خاصة، واللاوعي يريد أن يصبح مسؤولاً بصورة واعية. ولغاية اللحظة فإن كل الأمور هي في طور المخاض.

إن لاوعي أخنوخ مُثارٌ بصورة بالغة بكل ما يحدث من حوله، فها هي مكنوناته تتفجر في فيضان من الرؤى الرهيبة، وها هي تدفعه إلى الحج، رحلته إلى أرباع السماء الأربعة، وإلى مركز الأرض، ليرسم المندلة بحركته الشخصية هذه، ولتتسق مع رحلات الحج لفلاسفة الخيمياء، وفانتازيات لا وعينا الحديث.

عندما خاطب يهوه حزقيال بـ "ابن الإنسان"، لم تكن هذه أكثر من إلماحة مظلمة وملغّزة، بيد أنها أصبحت الآن جلية: أخنوخ الإنسان ليس فقط هو المتلقي للوحي الإلهي، بل في الوقت ذاته، هو مشارك في الدراما الإلهية، وكأنه هو أيضاً أحد أبناء الله، على أقل تقدير. ولا يمكن أن يعني هذا الأمر سوى أنه، وبنفس المقياس الذي يضعه الله ليصير إنساناً، فإن الإنسان أيضاً منغمسٌ بالسياق الملئي، ليصبح وكأنه يتعمد به، ويُحمل على أن يساهم في الرباعي الإلهي (أي أن يصلب مع

المسيح). ولهذا السبب، وإلى اليوم، لا تزال يد الكاهن، أثناء أداء طقس المعمودية، ترسم إشارة الصليب بالماء، ومن ثم تقوم برشقه في الأرباع الأربعة.

إن أخنوخ واقع بشدة تحت تأثير الدراما الإلهية، بل هو مأخوذ بها إلى الحد الذي يمكننا الافتراض معه أنه يمتلك فهماً خاصاً عن التجسّد القادم. ويبدو "ابن الإنسان" مثل ملاك مع "رأس الأيام (أو قديم الأيام)" (أي كأحد ابناء الله). فهو "عنده العدل"، و"به يتوطد العدل"، ورب الأرواح "قد اختاره"، و"له حق الظهور قبل غيره أمام رب الأرواح مرفوع الرأس"(125). ولعله ليس من قبيل المصادفة أن يتم التشديد على صفة العدل إلى هذه الدرجة، فهي الصفة الوحيدة التي يفتقر إليها يهوه، وهذه حقيقة لا يمكنها أن تبقى مخفية عن إنسان كمؤلف سفر أخنوخ. فتحت ظل حكومة ابن الإنسان:

".. صلوات الأبرار مسموعة،

[ويثأر] لدم الأبرار أمام رب الأرواح(126)"..

يشاهد أخنوخ

"ينبوعاً للعدالة لا ينضب(127)".

وابن الإنسان

".. سوف يكون قوام العدل..

ولهذا السبب كان اختياره منه

واختفاؤه عنه، قبل خلق العالم

وإلى الأبد. وحكمة رب الأرواح

كشفت عنه.. لأنه حريص

على مصير الأبرار.

هو قوي في كل أسرار العدل..

وكل الظلم سوف يتلاشى كالظل..

فيه تقطن روح الحكمة،

والروح الذي يعطيه بصيرة،

وروح الفهم والقدرة."

كذلك في ظل حكومة ابن الإنسان:

"سوف تعيد الأرض ما قد استُودع فيها،

وشيؤول أيضاً سوف يردّ ما قد أخذ..

وجهنم(128) سوف تسدد ما عليها من دين..

والمختار في تلك الأيام سوف يجلس فوق

عرشي، وفمه سوف ينطق بجميع أسرار

الحكمة والنصح (129)".

"الجميع سوف يصبحون ملائكة في السماء"

وعزازائيل وقبيله سوف يُلقون في الجحيم، لأنهم، انقادوا إلى الشيطان وأضلوا سكان الأرض" (130).

وفي نهاية العالم، سوف يحكم ابن الإنسان كل الخليقة. "سوف يتبدد الظلام، وينتشر النور إلى الأبد(131)". حتى أبهى صنيعة يهوه: ليوياثان وبهيموث، سيُجبران على الاستسلام(132) فيقطّعان ويؤكلان. ويخاطب في هذا المقطع مَلَك الوحي أخنوخ بلقب "ابن الإنسان"؛ وهي دلالة إضافية على أنه تمثل السر الإلهي واحتواه كما هو حال حزقيال، وذلك كما سبق الإيحاء به بالحقيقة العارية أنه قد شهده. وينطلق أخنوخ بعيداً، ويتخذ مجلسه في السماء، وفي "سماء السموات" يشاهد بيت الله مشيّداً من البللور، وتحيط به جداول من النار المتّقدة، وتحرسه كائنات مجنّحة لا تعرف النوم (133). ويأتي "رأس الأيام" بصحبة الملائكة الأربعة: ميكائيل، جبرائيل، رافائيل، فانوئيل، ويتحدث إليه بقوله: "هذا هو ابن الإنسان الذي ولد بالعدل، والعدل مقيم فيه، وعدل رأس الأيام لا يفارقه(134)".

من الملاحظ هنا هو تكرار ذكر عبارة "ابن الإنسان"، وما يعنيه بها يجب أن يقترن مرة بعد مرة بالعدالة، فالعدالة هي الفكرة المهيمنة، وهي همه الأساسي. ولا يتم التوكيد على فكرة العدالة ما لم يكن خطر الظلم ماثلاً، أو أن يكون الظلم قد وقع فعلاً، عندها فقط يصبح التوكيد ذا معنىً. ولا أحد، باستثناء الله، قادر على إقامة العدالة بدرجة ملحوظة. وبخاصة فيما يتعلق به، فإن الخوف هنا مبرر من كونه قد ينسى عدالته. وفي هذه الحالة، سيقوم ابنه الورع بالتوسط لديه بالنيابة عن الإنسان، وهكذا فسوف "ينعم الأبرار بالسلام(135)". وسوف تؤكد العدالة التي ستسود في عهد الابن، إلى حد كبير، على انطباع يدلّ على أنه من قبل، أي في ظل حكم الأب، وصل الظلم إلى حده الأقصى، ومع وصول الابن بدأت حقبة القانون والنظام. وهكذا يبدو وكأن أخنوخ قد منح أيوب الإجابة دون وعي منه.

والتوكيد على أن الله يتقدم بالعمر هو أمر يرتبط منطقياً بوجود الابن، لكنه يوحي أيضاً أن الله نفسه سيخطو خطوة إلى الوراء ويترك حكم عالم الإنسان أكثر فأكثر بين يدي الابن، على أمل بزوغ نظام أكثر عدلاً. ومن كل ما سبق تناوله، ربما يمكننا تبيّن أن الآثار اللاحقة جراء جرح نفسي، ذكرى ظلم أوصل صرخة إلى السماء وعكّر صفو العلاقة الحميمة مع الله. إن الله بنفسه يريد ابناً، وكذلك الإنسان يريد ابناً ليحل محل الأب. ويجب أن يكون هذا الابن، كما رأينا بشكل قاطع، عادلاً بالمطلق، وهذه الصفة تعطى الأولوية على ما سواها من الفضائل.

وفي ذروة نشوته، ظن أخنوخ أنه "ابن الإنسان"، وإنْ يكن غير جدير بأن يكون كذلك، لا ظن من ناحية الولادة ولا من ناحية القدر(136). فقد كانت حاله كحال أيوب، اختباراً لنوع من تسامٍ شبه إلهي اعتبرناه نتيجة لازمة، أو بالأحرى أننا استنتجنا ذلك. ولعل أيوب نفسه ساوره شك بهذا الأمر عندما أعلن: "أما أنا فقد علمت أن وليّي حي(137)". وفي ظل هذه الظروف، يمكن أن تشير هذه

العبارة اللافتة فقط إلى يهوه الخيّر. ويعتبر التأويل المسيحي التقليدي لهذه العبارة، أي فيما يتعلق بالنبوءة بالمسيح، صحيح بمقدار ما يجسّد الجانب الخيّر ليهوه أقنومه (شخص المسيح في الثالوث المقدس (hypostasis في ابن الإنسان، وكذلك بمقدار ما يثبت ابن الإنسان في أخنوخ بأنه ممثل للعدالة، وفي المسيحية بأنه مخلّصٌ للبشرية. علاوة على ذلك، فإن ابن الإنسان هو مسبق الوجود، وبالتالي فقد كان بمقدور أيوب أن يناشده. وتماماً، كما لعب الشيطان دور المتهم سيء السمعة من قبل، كذلك فإن المسيح، ابن الله الآخر، لعب دور المحامي والمدافع.

وعلى الرغم من وجود بعض التناقض، فقد طاب لبعض الباحثين رؤية أفكار أخنوخ المسيحانية(138)Messianic على أنها تأويلات مسيحية. ولأسباب سيكولوجية، فإنني لا أجد هذه الشبهة غير مبررة. فما على المرء سوى أن يتأمل الظلم الذي يرتكبه يهوه، وفساده الأخلاقي الصريح وما يعنيه هذا للمفكر الورع. كذلك، فإنه ليس أمراً مضحكاً أن يحمل المرء عبء فكرة كهذه عن الله. ثم تأتي وثيقة لاحقة لتخبرنا عن حكيم تقي لم يتمكن نهائياً من قراءة المزمور التاسع والثمانين "لأنه لم يستطع أن يتحمله". وعندما يتأمل المرء بمنتهى الكثافة والحصرية، ليس فقط تعاليم المسيح، بل أيضاً تعاليم الكنيسة، على مر القرون التي تلت وصولاً إلى يومنا الحاضر، حيث شددت هذه التعاليم على خير الآب المحب في السماوات، والخلاص من الخوف، والخير المطلق summum bonum والحرمان من الخير privation boni، لو تأمل المرء كل ما سبق لاستطاع تكوين مفهوم حول التناقض الذي يمثله شخص يهوه، ولرأى صعوبة تحمّل مثل هذا التناقض من قبل الوعي الديني، ولعل الحال كان كذلك منذ عهد أيوب.

إن عدم الاستقرار الداخلي ليهوه هو السبب الرئيسي، ليس فقط لخلق العالم، بل أيضاً للدراما الملئية التي لعب البشر فيها دور الكورال المأساوي. إن مواجهة المخلوقات تغيّر الخالق. ونجد في كتابات العهد القديم آثاراً متزايدة لهذا التطور من بداية القرن السادس قبل الميلاد، حيث كانت الذروتان الرئيسيتان هما مأساة أيوب، ورؤيا حزقيال. وفي حين كان أيوب هو المعذّب البريء، شهد حزقيال أنسنة يهوه وتمايزه. وبمخاطبته بـ "ابن الله"، فقد ألمح له، إن أمكننا القول، بأن تجسّد يهوه ورباعيته هما النموذج الملئي لما سوف يحدث، وذلك من خلال تحوّل وأنسنة الله، ليس فقط بالنسبة لابن الله، كما هو متوقع منذ الأزل، بل وللإنسان أيضاً، وقد تحقّق هذا الأمر كنبوءة بديهية في أخنوخ. وفي نشوته أصبح ابن الله في حالة الملء، وليست انطلاقته السريعة في العربة مثل إيليا، سوى تصوّر مسبق لانبعاث الموتى. ولكي يكمل دوره ككاهن للعدل ينبغي له الدنو من الله، وبصفته ابن الإنسان مسبق الوجود فهو لم يعد خاضعاً للموت. لكن بصفته إنساناً عادياً، أي فانياً، فإن فانين آخرين بالإضافة له يمكنهم بلوغ رؤية الله: بإمكانهم أيضاً أن يصبحوا واعين لمخلّصهم، وبالتالي يصبحون خالدين.

ومع الوقت كان بإمكان كل هذا الأفكار الوصول بسهولة إلى الوعي على أساس من الفرضيات، لو أن امرءاً تأملها بصورة جدية. إذ ليس هناك من داع لإقحاماتٍ مسيحية في هذا الخصوص. لقد كان كتاب أخنوخ نبوءة على أعلى المستويات، ولكن لا يزال كل شيء معلقاً في الهواء، مثل نبوءة مجردة لم تهبط على الأرض أبداً. وفي ضوء هذه الحقائق لا يعود في وسع المرء أن يرى، مهما حسنت نيته، كيف أن المسيحية انبثقت في تاريخ العالم كبدعة مطلقة، كما نسمع مراراً وتكراراً. ولو كان ممكناً تاريخياً تدبير أي أمر واستدامته ودعمه بنظرة شاملة للعالم والإنسان، فإن المسيحية ستكون المثال التقليدي على ذلك.

XII

في البداية ظهر يسوع كمصلح يهودي ونبي لإله الخير المحض، وبقيامه بهذا قام بإنقاذ الاستمرارية الدينية المهددة، كما أنه أثبت نفسه مخلصاً في نفس الوقت، إذ أنقذ البشرية من ضياع التواصل مع الله، ومن التيه في عقلانية ووعي مجردين وما يتأتى عن ذلك من انقطاع بين الوعي واللاوعي، وهي حالة غير طبيعية، بل ومَرَضية، هي "ضياع الروح" مثل ما كان يهدد الإنسان منذ بداية الأزمان. ومرة تلو المرة، وبمقاييس متزايدة، فإنه يدخل ضمن خطر تجاهل اللاعقلانيات الضرورية لروحه، متوهماً أن بإمكانه التحكم بكل شيء بالإرادة والعقل فحسب، وبالتالي قيادة قاربه الخاص. ويمكن رؤية هذا الأمر بصورة أكثر وضوحاً في الحركات الاجتماعية – السياسية، مثل الاشتراكية والشيوعية: تعاني الدولة تحت وطأة الأولى، ويعاني الإنسان تحت وطأة الثانية.

ترجم يسوع التقليد الساري حينها في حقيقته الشخصية، وأعلن الأخبار السارة: "إن الله يفرح بالإنسان كثيراً، إنه أبٌ محبٌ، وهو يحبكم، وأنا أحبكم، ولقد أرسلني إليكم بصفتي ابنه لأسدد دينكم القديم." لقد عرض يسوع نفسه كقربان وكفّارة سوف تعقد المصالحة بين الإنسان والله. وكلما ازدادت الرغبة بإقامة صلة حقيقية من الثقة بين الإنسان والله، اشتدت نزعة الانتقام والحقد لدى يهوه. هذا في الوقت الذي يتوقع المرء فيه من إله، هو أب محب، وفي الواقع هو الحب ذاته، تفهماً وتسامحاً. وهكذا فإن الصدمة تكون مثيرة للاشمئزاز عندما لا يسمح هذا الإله فائق الطيبة بالحصول على مثل النعمة إلا في مقابل التضحية البشرية، والأسوأ من ذلك أن التضحية تعني قتل ابنه هو بالذات. من الواضح أن المسيح قد تغاضى عن خيبة الأمل هذه، ففي جميع الأحوال تقبلت كافة العصور التي تلت هذا الأمر دونما اعتراض. ويجب أن يضع المرء نصب عينيه الحقيقة الغريبة بأن إله الخير قد بلغ مبلغاً من القسوة، بحيث أنه لا يمكن أن يهدأ إلا بالتضحية البشرية! إن في هذا تناقضاً لا يُطاق، ولم يعد بإمكان الإنسان الحديث استساغته. إذ لا بد أن يكون أعمى إن لم يرَ النور الساطع الذي يسلّط على الشخصية الإلهية، ولا يسعه إلا أن يكّذب الأحاديث المختلفة حول الحب والخير المطلق.

برهن المسيح على كونه وسيطاً بين الله والبشر بطريقتين: إنه يساعد الناس في مواجهة الله، ويهدّئ الخوف الذي يحسه الإنسان تجاه الله. تلك طريقة، والثانية أن يحتل مكانة هامة في المنتصف ما بين النقيضين: الله والإنسان، واللذين من الصعوبة بمكان توحيدهما. من الواضح أن التركيز على الدراما الإلهية ينتقل إلى الوساطة ما بين الله والإنسان. إنه لا يحتاج لا إلى الإنسانية ولا الإلهية، ولهذ السبب فقد حمل صفة الرموز الكلية، إذ فُهِمَ على أنه يحتضن الجميع، ويوحّد كافة الأضداد. كما يُعزى إليه رباعي ابن الإنسان، الذي يشير إلى وعي أكثر تميزاً (انظر الصليب والمربع) وهذا ما يتفق بشدة مع النموذج المذكور في أخنوخ، لكن مع وجود اختلاف كبير: إن كلاً من حزقيال وأخنوخ، واللذين يحملان لقب "ابن الإنسان"، هما كائن بشري عادي، في حين أن المسيح بحكم نسبه والحبل به وولادته، هو بطل ونصف إله بالمعنى الكلاسيكي. لقد أنجبه الروح القدس دون دنس([139]) من أمه العذراء، وكونه ليس من المخلوقات البشرية، فهو لا ينزع إلى ارتكاب الخطيئة. وبهذا فإن المسيح يقع في موقع إلهي أكثر منه بشري. إنه يجسد إرادة الله الخيّرة باستثناء كل ما عداها، وبالتالي فإن مكانته ليست في الوسط تماماً، فالخطيئة، والتي هي أمر

أساسي يتعرض له المخلوق البشري، لا تمس المسيح البتة. الخطيئة أصلاً موجودة في البلاط السماوي، ووصلت إلى الخليقة بمساعدة الشيطان، وهذا ما أغضب يهوه إلى درجة أنه قام في نهاية الأمر بالتضحية بابنه ليهدّئ من سورة غضبه. والغريب في الأمر هو أنه لا يتخذ أية خطوات لإقصاء الشيطان عن حاشيته. في سفر أخنوخ أوكلت مهمة حماية يهوه من وساوس الشيطان لأحد الملائكة الرئيسيين هو فانوئيل، وفقط مع نهاية العالم سوف يقيّد الشيطان، وهو على هيئة نجم(140)، بالأغلال من يديه وقدميه ويرمى في الهاوية. (أما في سفر الرؤيا فالحالة المذكورة غير ذلك، إذ يظل الشيطان حياً إلى الأبد بحالته الطبيعية).

وعلى الرغم من الافتراض بصورة عامة أن تضحية المسيح الفريدة قد قطعت لعنة الخطيئة الأصلية وأرضت الله أخيراً، إلاّ أن بعض الشكوك بقيت تراود المسيح بهذ الشأن. فماذا سوف يحدث للإنسان، وبخاصة لأتباعه، عندما تتوه القطعان عن راعيها، وعندما تفقد شفيعها لدى الآب؟ إنه يؤكد لتلامذته أنه باقٍ معهم على الدوام، بل وإلى ما بعد الأبدية، وأنه سيحيا فيهم. إلاّ أن كل ذلك لا يبدو أنه يجعله راضياً تماماً، فبالإضافة إلى كل ما سبق، فهو يعدهم بأن يرسل لهم من عند الآب فارقليطاً (محامياً، "ناصحاً") بديلاً عنه، ليعينهم قولاً وفعلاً، ويبقى معهم إلى الأبد. هنا يمكن للمرء أن يحزر مما سبق أن "الموقف القانوني" لم يتضح بعد بما ينفي الشك، أو أن عامل الحيرة لا يزال قائماً.

ولكن لا يزال لإرسال الفارقليط وجه آخر، فروح الحقيقة والحكمة هذه، هي الروح القدس الذي أُنجِبَ المسيح به، هو روح التكاثر الجسدي والروحاني، والذي سوف يتخذ من الإنسان المخلوق خلقاً مسكناً له من الآن فصاعداً. وبما أن الروح القدس هو الشخص الثالث في الألوهة، فإن هذا يشبه القول بأن الله سوف يولد في الإنسان المخلوق خلقاً. وهذا أيضاً ما يتضمن تغييراً هائلاً في حالة الإنسان، لأنه قد ارتقى الآن إلى البنوّة، وتقريباً إلى مكانة إنسان – إله. وبهذا يكتمل التصور المسبق في حزقيال وأخنوخ حيث، كما رأينا، كان قد منح لقب "ابن الإنسان" للإنسان المخلوق خلقاً. لكن هذا ما يضع الإنسان، على الرغم من خطاياه المتلاحقة، في موضع الوسيط الموحّد ما بين الخالق والمخلوق. ولربما كان المسيح يضع هذه الإمكانية غير المحسوبة في ذهنه عندما قال: "…. من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها(141)"، وبالإشارة إلى السطر السادس من المزمور الثامن والثمانين: "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العليّ كلكم"، ثم أردف: "ولا يمكن أن ينقض الناموس(142)".

إن سكنى الروح القدس المستقبلية في الإنسان ـ لترتقي إلى تجسّدٍ لله لا ينقطع. فالمسيح، وبصفته ابناً لله ووسيطاً مسبقاً الوجود، هو المولود الأول والنموذج الإلهي الذي ستتبعه تجسّدات متتالية للروح القدس في الإنسان التجريبي. لكن الإنسان يساهم في ظلمة العالم، وبالتالي، وبموت المسيح، سيظهر وضع بالغ الدقة قد يكون سبباً للاضطراب.

عندما أصبح الله إنساناً أُقصيت كافة الظلمات والشرور بعيداً، وحدث تحوّل أخنوخ إلى ابن الإنسان بالكامل في دنيا النور، وبات من غير المحتمل انقطاع هذا الرابط بين الله والإنسان بموت المسيح: بل على النقيض من ذلك، يتم التأكيد على استمرارية هذا الرابط مراراً وتكراراً، وذلك عن طريق إرسال الفارقليط. لكن كلما ازداد هذا الرابط قرباً، ازداد خطر التصادم مع الشر.

وبناء على اعتقاد مسبق، فإن الآمال ازدادت بأن يعقب انجلاء الضوء ظلمة مساوية لحجم الضوء تماماً، والمسيح سيعقبه مسيح دجّال. مثل هذا الرأي هو آخر ما يمكن توقعه من وضع ميتافيزيقي، فمن المفترض أن تفوز قوة الشر. ولا يمكن للمرء أن يصدق أن أباً محباً، وبعد القيام بكل هذه الترتيبات المعقدة للخلاص في المسيح، سوف يُطلق من جديد كلب الحراسة الشرير على أبنائه بإغفال تام لكل ما جرى من قبل. لمَ كل هذا التسامح المرهِق للشيطان؟ ولِمَ هذه المعاندة في إسقاط الشر على الإنسان الذي صار هشاً ومتداعياً وغبياً، بحيث أنه ليس قادراً على مقاومة أبنائه الشريرين؟ ولماذا لا يتم استئصال الشر من جذوره؟

لقد أنجب الله، مدفوعاً بالنوايا الحسنة، ابناً طيباً وفاعل خير، وبهذا خلق صورة لنفسه كأب طيب من جديد. ولسوء الحظ لا بد لنا من الاعتراف، ودون الأخذ بعين الاعتبار، بوجود تلك المعرفة فيه والتي تتحدث عن حقيقة مغايرة تماماً. فلو أنه حاسب نفسه على أفعاله، لكان عرف مدى الانفصام المرعب الذي خاضه من خلال تجسّده. فعلى سبيل المثال: أين ذهبت ظلمته، تلك الظلمة التي تمكن الشيطان بواسطتها من الفرار من عقاب يستحقه بجدارة؟ هل يعتقد أنه تغير بالمطلق، وأن لا أخلاقياته اختفت منه تماماً، حتى أنه لم يثق البتّة بابنه المضيء المسيح في هذا الخصوص؟ وها هو يرسل الآن "روح الحقيقة" إلى البشر، حيث سيكتشفون عاجلاً، وبمساعدة هذه الروح، ما الذي جرى عندما تجسّد الله فقط في جانبه المضيء، معتقداً أنه الخير ذاته، أو على الأقل أراد أن يُنظر إليه كذلك. من المتوقع حدوث انقلاب ضدي على نطاق واسع. ولعل هذا هو معنى الاعتقاد بمجيء المسيح الدجال، والذي ندين له بفاعلية "روح الحقيقة" أكثر من أي شيء آخر.

على الرغم من أن الفارقليط يحمل أهمية أكبر على المستوى الميتافيزيقي، إلا أنه كان، من وجهة نظر مؤسسة الكنيسة، أكثر شيء غير مرغوب فيه، لأن الروح القدس، وكما أثبت في الأسفار المخوّلة، ليس عرضة للتحكم. وفيما يتعلق بالاستمرارية والكنيسة، يجب التأكيد بشدة على فرادة عملية التجسّد وافتداء المسيح. ولنفس السبب السابق، فإن السكنى المستمرة للروح القدس ليست محبذة، بل ويتم تجاهلها قدر الإمكان، ولا يمكن احتمال المزيد من الاستفاضة بهذا الشأن.

من الضروري اعتبار أن كل شخص نزع به الروح القدس باتجاه الأفكار المارقة هو شخص مهرطق لا محالة، ولا بد أن الشيطان سيكون مسروراً للاضطهاد والإقصاء اللذين يتعرض لهما. بينما، ومن ناحية أخرى، لا بد للمرء من أن يدرك أنه لو حاول كل شخص إقحام نوايا روحه القدس الخاص على الآخرين لتطوير المعتقد العالمي، لكانت المسيحية انقرضت على الفور لاختلاطها بالألسن البابلية، وهو قدر تهددها لقرون طويلة.

إن مهمة الفارقليط "روح الحق" هي أن يسكن ويعمل ضمن بني البشر، ليذكّرهم بتعاليم المسيح، ويقودهم إلى النور. والمثال الجيد على هذا الأمر هو القديس بولس، الذي لم يعرف المسيح، ولم يتلق إنجيله من التلاميذ، بل من خلال رؤيا. إنه واحد من أولئك الأشخاص الذين ارتبك لاوعيهم، فأخرج وحياً ووجداً.

تكشف حياة الروح القدس نفسها من خلال فاعليتها الشخصية، ومن خلال آثار لا تؤكد فقط على الأمور التي نعرفها، بل تتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك. توجد في أقوال المسيح بعض الإشارات لأفكار تذهب أبعد من الأخلاقيات المسيحية التقليدية – مثل حكاية الوكيل الظالم (143)، والتي تتفق في أخلاقياتها مع Logion of the Codex Bezae ، وتخادع مستوى أخلاقياً مختلفاً

تماماً عن المتوقع. وهنا المعيار الأخلاقي هو الوعي، وليس القانون أو العرف. وقد يذكر المرء أيضاً الحقيقة الغريبة القائلة بأن المسيح رغب في أن يجعل من بطرس بالذات أساساً لبناء كنيسته، وهو المفتقر إلى ضبط النفس بشخصيته المتقلبة. تبدو لي هذه الأفكار كأنها تشير إلى تضمين الشر في ما يمكنني تسميته: التقييم الأخلاقي المتباين. فمثلاً سيكون من الجيد أن يخفي المرء سلوك الشر بشكل معقول، على أن ينتهج سلوك الشر بصورة غير واعية. وربما يفترض المرء أن آراء كهذه تناسب زمناً كان للشر والخير فيه مكانتان متساويتان، أو بالأحرى، عندما لم يكن الشر مكبوتاً على عتبة الافتراضات المريبة بأننا نعرف دائماً وتماماً كيف هو الشر.

ومن جديد، يبدو توقّع ظهور الدجال اكتشافاً أو وحياً بعيد المنال، مثل الإبانة اللافتة القائلة: على الرغم من سقوط الشيطان ونفيه، لكنه لا يزال "أمير هذا العالم"، ولا يزال يسكن الهواء المحيط. وعلى الرغم من سوء أفعاله، وفعل الله لخلاص البشرية، فإنه لا يزال يتحلى بمكانة مرموقة من القوة، ولا تزال مخلوقات تحت قمرية تقع ضمن إطار سلطته. ولا يمكننا وصف هذا الوضع سوى بأنه وضع بالغ الدقة، ولا ينسجم بأية حال مع ما يمكن وصفه بـ "الأنباء السارة". كما يمكننا القول إنه لم يتم تقييد الشر بأي شكل من الأشكال، أو القول: صارت أيامه معدودات. فالله لا يزال متردداً في استخدام القوة تجاه الشيطان، ربما كونه غير عارف بمقدار انحياز جانبه المظلم إلى ملاكه الشرير. وعادة ما لا يكون ممكناً إبقاء وضعٍ كهذا مخفيّ بصورة غير مؤكدة عن "روح الحق" الذي سكن في الإنسان. وبذلك خلق الله اضطراباً في لا وعي الإنسان أُنتج في بداية الحقبة المسيحية.

أما الرؤيا الثانية العظيمة، والتي كان غموضها سبباً وراء إظهار عدد هائل من التأويلات والتأويلات الخاطئة، في القرون التي تلت، فهي رؤيا القديس يوحنا.

XIII

لعله يصعب على المرء تخيّل شخصية ليوحنا، صاحب الرؤيا، أنسب من مؤلف رسائل يوحنا. لقد كان هو من أعلن أن الله هو النور، وأن "ليس فيه ظلمة البتّة"(144). (ومن قال إن في الله ظلمة؟). ومع ذلك، هو يعلم أننا إن أخطأنا احتجنا إلى من يشفع لنا عند الآب، ومن يشفع لنا هو المسيح الذي كفّر عن خطايانا(145)، ومن أجله ذنوبنا مغفورة. (إذن لماذا نحتاج إلى شفيع؟). والآب قد أنعم علينا بحبه الكبير (على الرغم من أن نعمة الحب هذه كان ثمنها تضحية بشرية!) نحن أبناء الله. كل مولود من الله لا يفعل خطيّة(146)، (ومن ذا الذي لا يرتكب خطيئة؟). ثم يتابع يوحنا عظته في المحبة، إن الله نفسه محبة، والمحبة الكاملة تلغي الخوف. لكن يتوجب على يوحنا التحذير من الأنبياء الكاذبين ومن أساتذة التعاليم الكاذبة، وسيكون هو من يعلن مجيء المسيح الدجّال.(147)

إن موقف يوحنا الواعي هو موقف أرثودوكسي، غير أنه يتنبأ بالشر. ولربما كان من السهولة بمكان بالنسبة له أن تراوده الأحلام التي لم تكن مسجلة في برنامج وعيه. فهو يتحدث كما لو كان عارفاً ليس فقط بحالة اللاخطيئة، بل أيضاً بحالة الحب الكامل، وذلك خلافاً لبولس الذي لم يكن يفتقر إلى تأمل الذات المطلوب. ونرى أيضاً أن يوحنا بالغ الطمأنينة، وبالتالي فهو يخاطر بالانفصام. وفي ضوء هذه الظروف لا بد أن ينمو موقف مضاد في اللاوعي يمكن إقحامه لاحقاً في الوعي على شكل رؤيا. وإن حدث هذا، فإن الرؤيا ستأخذ شكل أسطورة ذاتية بشكل أو بآخر، فهذه الرؤيا تعوّض، ومن بين أمور أخرى، عن أحادية الوعي الفردي. وتختلف رؤيا يوحنا عن رؤى حزقيال وأخنوخ، اللذين بدورهما اتصفت حالتهما الواعية، بصورة رئيسية، بحالة من الجهل (ولم يكن اللوم يقع عليهما في هذه الحالة)، وبالتالي تم التعويض في هذه الحالة بتصورات موضوعية وعالمية حول مادة النموذج البدئي.

وما نراه إلى الآن هو رؤيا متطابقة مع هذه الظروف، وحتى في الرؤيا الأولية يتبدى شكل موحٍ بالخوف: المسيح مندمجاً في توليفة مع "قديم الأيام"، مشابهاً للإنسان وابن الإنسان، ومن فمه يخرج "سيف ماضٍ ذو حدين" يبدو أنه ملائم للقتال وسفك الدماء، أكثر من كونه يدل على الحب الأخوي. وبما أن المسيح يقول له: "لا تخف"، فسنفترض أن يوحنا لم يهزم بفعل الحب عندما سقط "عند رجليه كميّتٍ(148)" بل بفعل الخوف. (ما هو ثمن الحب الكامل الذي يأتي من الخوف؟)

لقد أمر المسيح يوحنا بكتابة سبع رسائل إلى الكنائس في إقليم آسيا، وطلب منه أن ينصح كنيسة "إفسس" بسلوك التوبة: وإلاّ ستحرم من النور ("... إني آتيك... وأزحزح منارتك من مكانها") (149). كذلك نعرف من هذه الرسالة أن المسيح "يبغض" النيقولاويين. (كيف ينسجم هذا البغض مع محبة جارك؟).

أما أمر كنيسة "سميرنا" فليس بهذا السوء، فمن المعتقد أن خصومها هم اليهود، لكنهم "مجمع الشيطان"، وهذا الحديث لا ينم عن مودة بالغة.

وأما كنيسة "برغامس" فيقع عليها اللوم لا محالة، إذ أظهر معلّم لتعاليم كاذبة نفسه بوضوح فيها، وكذلك فإن المكان يحفل بالنيقولاويين، وتبعاً لما سبق، فلا بد لها من التوبة ـ "وإلا آتيك سريعاً"،

وهي عبارة لا تحمل معنى سوى التهديد.

وتتغاضى "ثياترا" من ناحية أخرى عن عظات "تلك المرأة إيزابيل، التي: تدعي أنها نبيّة"، وسوف "يلقيها في فراش المرض"، و"يقتل أولادها بالموت". أما "من... يحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أنا (سلطاناً) من عند أبي، وأعطيه كوكب الصباح"(150). لكننا نعلم جميعاً أن المسيح يعلّمنا أن "أحبوا أعداءكم"، بينما يهدد هنا بارتكاب مذبحة بحق أولاد، لا تقل عن مذبحة بيت لحم!.

أما أعمال كنيسة "ساردس" فليست كاملة أمام الله، ولذلك ليس أمامها سوى "التوبة" وإلاّ سوف تصبح مثل لصٍ "لا تعلم أية ساعة أقدم عليك"(151) ـ وهذا أيضاً إنذار ليس مودة.

وضمن هذا النطاق، فليس هنالك من لوم يقع على كنيسة "فلادلفيا"، في حين أنه سيبصق اللاواديسيين من فمه، فهم فاترو الهمة، غير متحمسين، وعليهم التوبة أيضاً. وشرحه هنا مميز: "إني كل من أحبه أوبّخه وأؤدبه"(152). ويمكننا هنا أن نتفهم لماذا لم يتقبل أهل لاوديكيا(153) المزيد من هذا "الحب".

لقد تلقت خمس من أصل سبع كنائس رسائل مؤنّبة، ويبدو هنا أن مزاج هذا المسيح ذي الرؤيا متعكر، كما يبدو أنه واعٍ لسلطته، وأنه "الزعيم" الذي يشبه كثيراً "ظل" الأسقف المحب للوعظ.

تأكيداً على ما ذكرته سابقاً، تتبدى الآن رؤيا على نمط رؤيا حزقيال. لكن من جلس على العرش لا يبدو كأنه إنسان، بل كـ "شبه حجر اليشب والعقيق"(154)، وأمامه "بحر زجاج شبه البلّور"، وحوله أربعة "حيوانات مملوءة عيوناً من قدّام ومن وراء... حول العرش وفي وسطه"(155). وفي هذه العبارات يظهر رمز حزقيال معدّلاً بصورة غريبة: فالأشياء الميتة والصلبة والمستقاة من عالم غير عضوي، مثل الحجر والزجاج والكريستال، هي ما يميز الألوهة. وفي حالاتٍ كهذه لا يمكن للمرء سوى أن يتذكر مدى انشغال الخيميائيين في القرون التالية، وبخاصة عندما أطلق على الإنسان الغامض: "الإنسان الأعلى" اسم "الحجر الذي ليس بحجر"، والعيون الكثيرة التي تومض في بحر اللا وعي الشاسع(156). وبجميع الأحوال، يظهر هنا بعضٌ من الحالة النفسية للقديس يوحنا، والتي التقطت نظرة خاطفة لأشياء تقع ما وراء الكون المسيحي.

وها هو كتاب الأختام السبعة يفتتح بـ "الخروف" الذي أبعد الملامح الإنسانية عن "قديم الأيام"، فهو يظهر الآن على هيئة حيوان. بل لنقل إنه وحش، كتلك الوحوش ذوات القرون المتعددة التي تظهر في سفر الرؤيا، بسبعة أعين وسبعة قرون، ليشبه بذلك الكبش. وبجميع الأحوال، فلا بد أنه بدا بشعاً للغاية. وعلى الرغم من أنه وُصف كـ "قائم كأنه مذبوح"(157)، إلاّ أنه لا يتصرف كضحية بريئة، بل بشكل حيوي فعلاً. ومنذ بداية الأختام الأربعة الأولى، يقوم بإطلاق سراح الفرسان المشؤومين الرهيبين. ومع فضّ الختم الخامس، نسمع الشهداء يصرخون مطالبين بالانتقام ("حتى متى، أيها السيد القدوس والحق، لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين الأرض؟")(158)

يجلب الختم السادس معه كارثة كونية، ويختبئ كل شيء من "غضب الخروف"، "لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم(159)"، بحيث أننا لم نعد قادرين على التعرف على ذلك الخروف الوديع الذي قاد نفسه طواعية إلى المذبح، إذ لم يعد يوجد سوى الكبش الغاضب العدائي، الذي نفّس عن غضبه أخيراً. وأرى في هذا كله ثوراناً في مشاعر سلبية بقيت دفينة طويلاً، أكثر مما أرى غموضاً ميتافيزيقياً، مشاعر كتلك التي يمكن ملاحظتها بصورة متكررة في الأشخاص الساعين للكمال.

ويمكننا أن نعتبر، وبصورة مؤكدة، أن مؤلف رسائل يوحنا بذل كل الجهود الممكنة لتطبيق عظاته التي قدمها لأتباعه المسيحيين، ولهذا السبب تحديداً كان عليه إبقاء باقي المشاعر السلبية دفينة، حيث تمكن من نسيانها بمساعدة افتقاره لتأمل الذات. لكن، وعلى الرغم من إخفائها عن مستوى الوعي، إلاّ أنها بقيت تتفاعل تحت السطح، ومع مرور الوقت حاكت شبكة مفصّلة من الأفكار الساخطة والانتقامية انفجرت بعد ذلك على شكل رؤى فوق سطح الوعي. ومن هنا برزت صورة مرعبة تتناقض بشكل صارخ مع أفكار المسيحية عن التواضع والتسامح ومحبة الجار والعدو، وتجعل من الأب المحب في السماوات منقذ البشرية مجرد هراء، إنها صورة طقوس حقيقية جامحة من الكره والحقد وروح الانتقام، كشفت عن صورة فانتازية من رعبٍ يندلع، ومن دماء ونار تغمر عالماً سعى المسيح لإعادته إلى حالته الأولى من البراءة والاتصال المحب مع الله.

ثم، وبصورة طبيعية، جلب فضّ الختم السابع معه فيضاناً جديداً من مآسٍ، وقد هدد هذا الفيضان بإنهاك مخيلة القديس يوحنا غير الإلهية. وليحصّن يوحنا نفسه، كان لا بد له الآن من تناول مقويات تمكنه من الاستمرار في "نبوءته".

عندما توقف الملاك السابع عن النفخ في البوق، ظهرت رؤيا في السماء للمرأة ـ الشمس مباشرة بعد الدمار الذي حل بأورشليم.. "القمر تحت رجليها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً(160)". لقد كانت هذه المرأة تعاني من مخاض الولادة، ويقف أمامها تنين ضخم أحمر يسعى لافتراس وليدها.

إن كل هذه الرؤيا خارج سياق النص. إذ يكوّن المرء، في الرؤيا السابقة، انطباعاً بأنها خضعت في وقت لاحق إلى إعادة ترتيبها وتنقيحها، بل وإلى تنميق لغتها، حتى لينتاب المرء شعور بأن هذه الرؤية هي الأصلية، وأن القصد من وراءها لم يكن تربوياً. لقد قُدّمت الرؤيا بانفتاح الهيكل في السماء، وبمشهد "تابوت العهد(161)". ولعلها مقدمة لنزول العروس السماوية، أورشليم، وهي مكافئ صوفيا / الحكمة. إنه جزء من مشهد الزواج السماوي الذي كانت ثمرته إنساناً – طفلاً سماوياً. إنه مهدد بمواجهة قدر أبولو، ابن ليتو، والذي لاحقه التنين. وهنا يجب أن نتوقف دقيقة عند شخص الأم، إنها "امرأة ترتدي الشمس". ونلاحظ العبارة البسيطة "امرأة" – امرأة بسيطة، فهي ليست إلهة، ولا العذراء الأبدية التي حبلت دون دنس. كما لم تتم ملاحظة اتخاذ أية احتياطات مسبقة لإلغاء الأنوثة الكاملة عنها، باستثناء الصفات الكونية والطبيعية التي تميزها بأنها روح دنيوية، وندّ للإنسان الكوني الأول، أو الأنثروبوس. إنها الأنثروبوس – الأنثى، العنصر المقابل للذكر الأولي.

وبصورة واضحة، فإن نموذج ليتو الوثني مناسب لتفسير الفكرة أعلاه، ففي الأسطورة اليونانية تمتزج عناصر الأبوة والأمومة بصورة تكاد تكون متساوية: النجوم في الأعلى، والقمر في الأسفل، وفي الوسط توجد الشمس، حورس الذي يشرق، وأوزيريس التي تغيب، والليل الأمومي يحيط بالمكان، سماوات من الأعلى، وسماوات من الأسفل – تكشف هذه الرمزية الغموض الكامل "للمرأة": فهي تحتوي في عتمتها شمس الوعي "المذكر"، والذي يشرق مثل طفل يخرج من بحر ليل اللاوعي، وكإنسان هرم يغرق فيه ثانية. إنها تضيف العتمة إلى النور، وترمز إلى تزاوج الأضداد، وتصالح ما بين الطبيعة والروح.

فالابن الذي يولد من هذه الأعراس السماوية، هو بالضرورة مركّب أضداد، ورمز موحّد وشمولي للحياة. وقطعاً هنالك سبب دعا لا وعي يوحنا للاستعارة من الأسطورة اليونانية لوصف هذه التجربة الآخروية Eschatological الغريبة. وبأي شكل من الأشكال لا ينبغي خلطها مع مولد الطفل – المسيح، إذ حدثتقبل زمن طويل وضمن ظروف مختلفة. وعلى الرغم من أن الإشارة واضحة إلى "الخروف الغاضب"، أي مسيح الرؤيا، فإن الطفل – الإنسان المولود حديثاً ممثلاً ببديله، هو كمن سوف "يرعى جميع الأمم بعصا من حديد(162)". وهو بذلك تمثّل مشاعر طاغية من الحقد والانتقام، ليبدو وكأنه سيتابع إطلاق حكمه في المستقبل البعيد دونما داعٍ. ولا يبدو هذا التفسير متماسكاً، إذ تم تعيين الخروف للقيام بهذه المهمة. وفي سياق هذه الرؤيا فإنه يضع لها نهاية دون حصول الطفل – الإنسان على الفرصة للعمل بمفرده، وهو لا يظهر ثانية بعد ذلك. لذلك أميل إلى الاعتقاد بأن وصفه كابن الانتقام، إن لم يكن إقحاماً للتفسير، فلا بد أنه كان عبارة مألوفة لدى يوحنا، وبالتالي انزلقت منه كتفسير واضح. وهو الاحتمال الأقوى في هذا الفصل، إذ لم يمكن ممكناً فهمه في حينها سوى بهذه الطريقة، على الرغم من أن هذا التفسير بلا معنى تماماً.

وكما أوضحت سابقاً، فإن مسألة المرأة – الشمس هي جسم أجنبي في سياق الرؤى. وبالتالي فأنا أعتقد بأنه لم يكن أمراً مستبعداً التنبؤ بأن كاتب سفر الرؤيا، أو ربما هو مجرد ناسخ محتار، شعر بالحاجة إلى تفسير هذا التماثل مع المسيح وبشكل ما يجعله منسجماً مع النص ككل، فكان من السهولة بمكان فعل هذا باستخدام الصورة المألوفة للراعي ذي العصا الحديدية. ولا يمكنني رؤية سبب آخر لتداعي المعاني هذا.

هذا الطفل – الإنسان "ملحق بالله"، ومن الواضح أنه أبوه، وأن الأم مختفية في البريّة. ويبدو أن هذا ما يدل على أن شخص الطفل سوف يبقى كامناً لمدة غير محددة من الزمن، وأن دوره محفوظ للمستقبل. لعل قصة هاجر هي تصور مسبق لهذا الأمر، كما يعني أن الشبه بين هذه القصة، وبين ولادة المسيح ليس أكثر من أن ولادة الطفل – الإنسان هو حدث مماثل، مثل حالة تتويج الخروف بكل مجده الميتافيزيقي، والذي لا بد من أنه حدث قبل زمن طويل من حادثة الصعود. وبنفس الطريقة يوصف التنين، أي الشيطان، بأنه طرد إلى الأرض(163)، رغم أن المسيح قد راقب سقوط الشيطان منذ زمن مبكر. إن هذا التكرار الغريب أو الاستنساخ لأحداث متميزة في حياة المسيح قد صعّدت حدساً بأن مسيحاً ثانياً مرتقباً مع حلول نهاية العالم. وليس الاحتمال هنا أن يكون المقصود عودة المسيح بذاته، إذ قيل لنا إنه سيأتي "ضمن غيوم السماوات"، لكن ليس هنالك من كلام عن ولادته للمرة الثانية، وبالتأكيد ليس من زواجٍ للشمس والقمر. إن تجلي المسيح مع نهاية العالم ينسجم أكثر مع محتويات الرؤيا 1 و 19:11. ولعل الحقيقة الأخيرة القائلة بأن يوحنا يستخدم أسطورة ليتو وأبولو في وصف الولادة، لهي بحد ذاتها إشارة إلى أن الرؤيا، وهذا ما يتناقض مع التقليد المسيحي، هي منتجٌ للاوعي(164). إنما يوجد في الوعي كل ما تم رفضه من قبل اللاوعي، وكلما ازداد لاوعي الإنسان المسيحي، ازدادت وثنية سلوك اللاوعي، وإن كانت هنالك قيم كامنة في الوثنية المرفوضة، إلاً أنها قيم هامة بالنسبة للحياة، مثل رمي الطفل مع ماء الحمام كما يحصل كثيراً. لا يمكن للاوعي أن يعزل أو يميّز أدواته مثلما يفعل الوعي. فهو لا يفكر بتجرّد، أو ينفصل عن الذات: إن الإنسان ذا الرؤيا أو الوجد ينجذب دائماً إلى الإجراء، بل إنه متضمّن داخله. ففي هذه الحالة، هو يوحنا نفسه من تتماهى شخصيته اللاواعية مع المسيح، ونافلة القول أنه ولد مثل المسيح، وولد ليلاقي ذات المصير. إن يوحنا مأسور تماماً بالنموذج البدئي للابن

الإلهي، بحيث أنه يرى فعالياته في اللاوعي، وبكلمات أخرى، إنه يرى كيف خلق الله في اللاوعي من جديد (وبصورة جزئية وثنية)، وذلك بشكل لا يمكن تمييزه عن ذات يوحنا، نظراً لأن الابن الإلهي هو رمز للنفس بقدر ما هو رمز للآخر، تماماً كما هو المسيح. وبصورة واعية، بالطبع، فإن يوحنا كان بعيداً حقاً عن التفكير بالمسيح كرمز. إذ بالنسبة للقناعة المسيحية، فإن المسيح هو كل شيء، وقطعاً هو ليس مجرد رمز، أو تعبير عن شيء ما غير معروف أو غير قابل للمعرفة، ومع ذلك فإنه رمز بطبيعته الحقّة. ولم يكن المسيح ليترك الانطباع الذي تركه على أتباعه لو لم يكن قد عبّر عن أمرٍ ما كان حياً وفاعلاً في لا وعيهم. ولم تكن المسيحية لتنتشر في العالم الوثني بهذه السرعة المدهشة لو لم تجد أفكارها جهوزية نفسية مماثلة لتلقيها. وليس كهذه الحقيقة ما جعل من الممكن أيضاً القول إنه كائناً من يكون من يؤمن بالمسيح فهو ليس متضمناً به فحسب، بل إن المسيح يصبح مقيماً في المؤمن، تماماً كما تم تشكيل الإنسان الكامل بصورة الله، أو آدم الثاني. وعلى المستوى السيكولوجي فهي مثل تلك العلاقة في الفلسفة الهندية ما بين الأنا الواعية لدى الإنسان، والـ "بوروشا(165)" أو الـ "أتمان(166)". إنها سطوة الـ "الكامل" أو الكائن البشري الكلّي، المؤلفة من كليّة الروح والوعي واللا وعي، على الأنا العليا، وهذا ما يتمثل فقط في الوعي ومكوّناته الذي لا يعلم شيئاً عن اللاوعي، وذلك على الرغم من أنه، ومن نواحٍ مختلفة، متكئ على اللاوعي، وغالباً ما يتأثر به بشكل حاسم. وتنعكس هذه العلاقة ما بين النفس والأنا في العلاقة ما بين المسيح والإنسان، ومن هنا جاءت التناظرات الجليّة ما بين أفكار مسيحية وهندية بعينها، ما سمح لإطلاق تخمينات عن الأثر الهندي في المسيحية.

هذا التوازي، الذي بقي كامناً في يوحنا، أخذ يتفجّر الآن إلى وعي على شكل رؤيا. وبما أن هذا الاجتياح أصيل، إذن يمكن النظر إليه من خلال استخدامه لمادة الأسطورة الوثنية، وبخاصة بما تحتويه من تأثير علم الفلك. وربما يشرح هذا الأمر الملاحظة الوثنية الشاملة: "فأعانت الأرض المرأة(167)". وعلى الرغم من أن وعي ذلك العصر كان ممتلئاً حصرياً بالأفكار المسيحية، فإن محتويات وثنية، سابقة أو معاصرة، طفت على السطح، مثل حالة القديس بربتوا(168). وبنموذج يهودي – مسيحي، ولربما يمكن اعتبار نموذجاً آخر هو صوفيا/الحكمة الكونية، والتي يشير إليها يوحنا بأكثر من مناسبة. كما يمكن اعتبارها ببساطة أماً للطفل الإلهي(169)، فمن الجلي أنها امرأة من السماء، أي إلهة، أو شريكة إله. ترتقي صوفيا/الحكمة إلى هذا التعريف، وكذلك تفعل مريم التي تقمصت شخصها. فلو كانت الرؤية حلماً حديثاً لما تردد المرء بتأويل ميلاد الطفل الإلهي كما لو أنه وعي للذات. وفي حالة يوحنا فإن موقف الوعي من الإيمان يتيح تلقي صورة المسيح في مادة اللاوعي، إنها صورة تفعّل النموذج البدئي للأم العذراء الإلهية وميلاد ابنها المحب، ووضعه وجهاً لوجه مع وعيه المسيحي. وكنتيجة لذلك فإن يوحنا أصبح شخصياً متورطاً في الدراما الإلهية.

لقد استحالت صورة مسيح يوحنا، والمشوبة بالمشاعر السلبية، إلى منتقم همجي لم يعد بإمكانه تحمل وجود أي شبه حقيقي مع المنقذ. ولم يعد المرء متيقناً البتة مما إذا كان شخص المسيح هذا، في نهاية الأمر، فيه من يوحنا البشري ما فيه، مع ما يعوضه ظله، أكثر مما فيه من المخلّص الإلهي الذي هو نور الأنوار، "لاظلمة" فيه. كذلك، لا بد أن التناقض المغاير لـ "الخروف الغاضب" يكفي لإثارة شكوكنا بهذا الشأن. بإمكاننا اللف والدوران ما شئنا، ولكن، بالنظر إليه في ضوء إنجيل المحبة، يبقى المنتقم والقاضي هو الشخصية الأكثر ارتكاباً للخطايا. ولعل المرء

يرتاب بأن يكون هذا هو السبب الذي دفع يوحنا إلى تمثّل الطفل – الإنسان حديث الولادة إلى شخص المنتقم، ليُغشي بذلك بالضباب شخصيته الأسطورية كشاب إلهي محبب ومحبوب، وهو الذي نعرفه في أشخاص مثل تموز وأدونيس وبالدر. إن الجمال الساحر الشبيه بالربيع لهؤلاء الشباب الإلهيين لهو أحد القيم الوثنية التي نفتقدها بشدة في المسيحية، وبالذات في عالم الرؤيا الكئيب، هم كمجد صباح لا يوصف ليوم ربيعي، يتسبب في ازدهار الأرض بعد سكون قاتل شتوي، ويُسعد قلب الإنسان، ويجعله يؤمن بإله لطيف محب.

وبصفتها الكلية، فإن النفس هي على الدوام معرّفة بصفتها مركّب أضداد، إذ كلما ازداد إصرار الوعي على طبيعته النوارنية وادعائه بالسطوة الأخلاقية، ازداد ظهور النفس كشيء معتم وخطير. لربما نفترض وجود حالة كهذه لدى يوحنا، بما أنه كان راعياً لقومه، وكائناً بشرياً خطّاءاً في نفس الوقت. ولو كانت الرؤيا مسألة شخصية وتعود بشكل أو بآخر ليوحنا، لكانت بالتالي ليست سوى هيجان استياءٍ شخصي، ولكانت هذه الحاجة قد ارتضت بشكل كامل بشخص الخروف الغاضب. ضمن هذه الظروف فإن الطفل – الإنسان المولود حديثاً سيكون مقيداً بملامح إيجابية بشكل ملحوظ. وإلا، لكان وتبعاً لطبيعته الرمزية، قد عوّض الدمار المفرط الذي وقع بفوراتٍ عاطفية دامت حبيسة لمدة طويلة، وذلك لكونه الطفل – ثمرة التقاء الأضداد: عالم النهار – ضوء الشمس، وعالم الليل – ضوء القمر. ولكان اشتغل كوسيط ما بين جانبي طبيعة يوحنا: المحب، والناقم، ولكان أضحى بذلك المخلّص المنّان الذي أعاد التوازن. وبكافة الأحوال، لا بد أن هذا الجانب الإيجابي قد فات يوحنا، وإلاّ لما كان تخيّل الطفل في مكانة واحدة مع المسيح المنتقم.

لكن مشكلة يوحنا لم تكن شخصية، إذ لم تكن المسألة مرتبطة بلا وعيه الذاتي، أو هي فورة لمزاج عليل، بل كانت رؤىً جاءته من عمق أبعد وأكثر شمولية، بمعنى أنها من اللاوعي الجمعي. وإن قضيته لتعبر عن ذاتها أمامنا بشكل أكثر وضوحاً في النماذج البدئية الجمعية أكثر من اختصارها إلى مجرد حالة ذاتية. وسيكون الأمر أكثر سهولة لو أننا قمنا بهذا، وكذلك سيكون خطأً على صعيد النظرية والممارسة. وبصفته مسيحياً، فقد كان يوحنا مأخوذاً بالنموذج الجمعي البدئي، ومن هذا المنطلق لا بد من تفسيره في المقام الأول بهذا المعنى. من المؤكد أن يوحنا كان يمتلك شخصيته السيكولوجية الخاصة به، والتي نمتلك نظرتنا الخاصة إليها، طبعاً، هذا إذا ما كنا سنعتبر أن مؤلف الرؤيا والرسائل هو الشخص نفسه. إن محاكاة المسيح تخلق ظلاً متناظراً في اللاوعي، وهو نادراً ما يحتاج إلى برهان. إن الحقيقة القائلة بأن ليوحنا رؤاه هي من حيث المبدأ دليل توتر غير مألوف ما بين الوعي واللاوعي. وإن كان مؤلف الرؤيا متماهياً مع مؤلف الرسائل، فلا بد أنه كان أكبر سناً عندما كتب سفر الرؤيا. إذ عندما يقارب الإنسان الموت، وعند غياب شمس حياة طويلة حافلة بالأحداث، غالباً ما يرى صوراً مكثفة من زمن ممتد أمامه. ولا يمكن لمثل هذا الإنسان أن يعيش في عالم الحياة اليومية، وتقلبات العلاقات الشخصية، بل في رؤية عصور متعددة، وفي حركة الأفكار، بينما تعبر من قرن إلى آخر. إن عين يوحنا تنفذ في المستقبل القريب للحقبة المسيحية، وفي الهاوية المظلمة لهذه القوى التي حافظت المسيحية على توازنها. لقد كان ما انفجر في يوحنا هو عاصفة أزمنة، هاجسٌ بالانقلاب الضدي الهائل الذي لا يمكن استيعابه باستثناء كونه إبادة نهائية للعتمة التي لم تتمكن من استيعاب النور الذي ظهر في شخص المسيح. لقد فشل يوحنا في رؤية القوة التدميرية للانتقام وعتمتها التي انسلخ عنها عندما أصبح إنساناً، وبالتالي فهو لم يفهم أيضاً ما الذي يمكن أن يعنيه طفل – القمر – الشمس، وكان كل ما تمكن من تأويله هو شكل آخر

للانتقام. إن العاطفة المنبثقة في رؤياه لا تحمل أي أثر لوهن أو سكينة خريف العمر، فالأمر بالتأكيد يتجاوز الاستياء الشخصي: إنها روح الله ذاته التي تضرب من خلال جسد الفاني الضعيف، وكذلك تحتاج إلى خوف الإنسان من ألوهة لا متناهية.

XIV

لا يبدو أن سيل المشاعر السلبية سينقطع، بل إن الأحداث الرهيبة تستمر بالوقوع. فمن البحر تخرج وحوش "ذات قرون" (بمعنى أنها موسومة بالقوة)، هي سلالة الأعماق الفظيعة. وفي مواجهة كل هذه العتمة والدمار أخذ وعي الإنسان المرعوب، وبشكل مفهوم للغاية، يبحث عن ملجأ أو جبل أو جزيرة سلام وأمان. ولذلك نسج يوحنا رؤيا الخروف على جبل صهيون، حيث يتجمع حوله أربعة وأربعون ألفاً ومائة ألف من النخبة ومن الذين كتبت لهم النجاة(170)، إنهم ذكور عذارى "لم يتنجسوا مع النساء"(171). وهم أنفسهم من تبعوا خطى إله يموت شاباً، ولم يصبحوا مطلقاً كائنات بشرية كاملة، لكنهم تخلوا، وبطواعية، عن حصتهم في المصير البشري، وقالوا: لا لاستمرارية الحياة على الأرض(172). لو اعتنق كل إنسان وجهة النظر هذه، لانقرض الجنس البشري خلال بضعة عقود، لكن عدد هؤلاء المحكومين بهذا المصير محدود. لقد آمن يوحنا بالقضاء والقدر المتأتي عن السلطة العليا، وهذا تشاؤم وضيع.

يقول مفيستو(173):

كل شيء خُلق

سيؤول إلى نهايته

وسرعان ما تدخلت الملائكة بنذيرها حيال هذا الاحتمال المعتدل الذي يدعو للارتياح، إذ ادعى الملاك الأول "بشارة أبدية" جوهرها "اخشوا الله!" ولم يعد هنالك المزيد من الحديث عن محبة الله، بل عن الخوف منه، ومن يخف منه فخليق به أن يكون مخيفاً(174).

والآن يظهر ابن الإنسان حاملاً بيده منجلاً حاداً، وإلى جانبه ملاك مساعد يحمل بيده أيضاً منجلاً حاداً(175). لكن موسم الجني مؤلّف من حمّام من الدم لا مثيل له: لأن الملاك "قطف كرم الأرض فألقاه إلى معصرة غضب الله... فخرج دم من المعصرة" - التي ديست بها كائنات بشرية! حتى إلى لجم الخيل مسافة ألف وستمائة غلوة(176).

ثم يخرج من الهيكل السماوي سبعة ملائكة ومعهم سبع قوارير، هي قوارير الغضب يصبون منها حمماً على الأرض(177). إن دمار العاهرة الكبرى هو في بابل، وهي الجزء المكافئ لأورشليم السماوية. إن العاهرة هي المكافئ من العالم الآخر لصوفيا المرأة – الشمس، والتي هي انعكاس للشخصية الأخلاقية. وإن جعلت النخبة من نفسها "عذارى" تكريماً للأم العظيمة صوفيا/الحكمة، فكان لا بد أن تتوالد مخيلة رهيبة من الفسوق في اللاوعي تعويضاً لذلك. وبذلك يصبح دمار بابل يمثل، ليس فقط نهاية الفسوق، بل أيضاً اجتثاثاً مطلقاً لكل متع الحياة ومسرّاتها، كما نرى في الفقرتين 22 و23 من الإصحاح الثاني عشر من سفر الرؤيا:

"وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنين،

والمزمرين والنافخين بالبوق،

لن يسمع فيك في ما بعد

....

"ونور سراج لن يضيء فيك في ما بعد،

وصوت عريس وعروس،

لن يُسمع فيك في ما بعد."(178)

ونظراً لأننا نعيش في نهاية الألفية الثانية من الحقبة المسيحية، فلا يمكننا الحؤول دون تذكر القدر الذي حل بالفن في زمننا المعاصر.

فرموزٌ مثل أورشليم وبابل وغيرها، لطالما كانت بالغة التصميم، بمعنى أن لها ملامح معانٍ متعددة، وبذلك يصبح بالإمكان تأويلها بطرق مختلفة. وكل ما يهمني هنا هو الملمح السيكولوجي، إذ لا أرغب بعرض رأيي نظراً لاحتمالية ارتباطها بأحداث تاريخية.

إن تدمير كل ما في الحياة من متع ومسرات، والمعاناة غير الموصوفة التي مرّت بها كافة المخلوقات التي ابنثقت ذات مرة من يد الخالق السخي، سوف تكون مناسبة، نظراً لعمق المشاعر، لأعمق كآبة. لكن يوحنا يصرخ: "افرحي لها أيتها السماء والرسل القديسون والأنبياء لأن الرب قد دان [بابل] دينونتكم(179)". والتي منها يمكننا تبيان مدى ما تصل إليه روح الانتقام وشهوة التدمير، ومعنى "الشوك في الجسد".

وما يلفت الانتباه هنا أن المسيح، الذي يقود الملائكة، هو من يدوس "معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شيء(180)"، فثوبه مغموس بالدم(181)، ويركب فرساً أبيض(182). والسيف الذي يخرجه من فمه يقتل به الوحش و"النبي الكذّاب"، والمفترض أنه يكون جانب يوحنا المظلم، أي الظل. والشيطان أسير في هوّة بلا قرار لمدة ألف عام، سوف يدوم حكم المسيح المدة ذاتها. "وبعد ذلك لابد أن يحل [من الأغلال] زماناً يسيراً(183)". وهذه الألف عام تتطابق فلكياً مع النصف الأول من حقبة "برج الحوت". وبالتالي فإن إطلاق سراح الشيطان، لا يمكن للمرء أن يتخيل سبباً له، وبعد مرور هذه المدة لا بد له من أن يتطابق مع الانقلاب الضدي لزمن المسيح أي لحكم المسيح الدجّال، والذي قد يتم التنبؤ بوصوله على خلفية فلكية. وأخيراً، وفي نهاية مدة زمنية غير محددة، سيتم رمي الشيطان في بحيرة النار والكبريت إلى أبد الآبدين (إنما لا يتم القضاء عليه نهائياً كما يحدث في أخنوخ)، ويتلاشى الخلق الأول كله(184).

لقد صار الآن ممكناً عقد قران الخروف على عروسه بالزواج الإلهي الذي أعلن عنه في وقت مضى(185). العروس هي "أورشليم الجديدة نازلة من السماء(186)"، "ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلّوري(187)"، وقد بنيت المدينة من الذهب الخالص على شكل مربع، نقية مثل البلّور، وكذلك كانت شوارعها. والرب – الله نفسه مع الخروف هما هيكلها، وهما مصدر النور الذي لا ينضب. لا يوجد ليل في المدينة، وليس فيها دنس(188). (إن تكرار التأكيد يخفف شكوكاً ما تلاشت لدى يوحنا). ومن عرش الله ومن الخروف تجري مياه نهر الحياة، وعلى ضفته توجد شجرة الحياة، لكأنه تذكير بالجنة وحالة الملء مسبقة الوجود(189).

أما الرؤيا الأخيرة، التي عادة ما يتم تأويلها كإشارة إلى صلة المسيح بكنيسته، فتحمل معنى "الرمز الموحّد"، وبالتالي هي تمثيل للكمال والكليّة: ومن هنا فإن الرباعية تبيّن ذاتها في المدينة على شكل المربع، ففي الفردوس هنالك الأنهر الأربعة، وفي المسيح الإنجيليون الأربعة، وفي الله المخلوقات

الحية الأربعة. وبينما تشير الدائرة إلى كروية السماوات وكل الطبيعة الحاضنة للألوهة "الأثيرية"، "يشير المربع إلى الأرض(190)". إن السماء مذكر، في حين أن الأرض مؤنث، وبذلك فإن لله عرشاً في السماء، بينما تمتلك الحكمة عرشها على الأرض، وكما تقول هي في سيراخ(191): "كذلك أراحني في مدينته المحبوبة، وفي أورشليم كان سلطاني". إنها "أم المحبة البهية(192)". وعندما يصوّر يوحنا أورشليم العروس، فغالباً ما تبع خطى سيراخ. فالمدينة هي صوفيا، التي كانت مع الله قبل بداية الزمن، وفي نهاية الزمان سوف يجتمعان ثانية من خلال الزواج المقدس. وبصفتها كائناً مؤنثاً فإنها تتوافق مع الأرض التي منها ولد المسيح، كما يخبرنا أحد آباء الكنيسة(193)، ومن هنا فإنها أيضاً تتوافق مع رباعي المخلوقات الأربعة الحية والتي تجلّى الله من خلالها كما يرد في حزقيال. وبنفس الطريقة التي تمثل فيها صوفيا انعكاس ذات الله، فإن الملائكة الأربعة السيرافيم يمثلون وعي الله بملامحه الأربعة الوظيفية. ثم إن العيون الكثيرة(194) التي تحدّق في العجلات الأربع تشير إلى الاتجاه نفسه. إنها تمثل التركيبة المضاعفة لنورانية اللاوعي، وهي تنطبق على رباعي حجر الفلاسفة، الذي يذكرنا به وصف المدينة: كل شيء يلمع بالجواهر الثمينة والكريستال والبللور بانسجام كامل مع رؤية حزقيال لله. وتماماً كما يجمع الزواج الإلهي ما بين يهوه وصوفيا/الحكمة (شيكيناه(195) في الكابالا(196)) فتتم بالتالي استعادة الحالة الملئية الأصلية، فإن الوصف الموازي لله والمدينة يشير إلى طبيعتهما المشتركة: أصلهما واحد، مركب أضداد واحد، نموذج بدئي لكونية أعظمية.

ما من ريب بأن هذا يعني الحل النهائي لصراع الوجود الرهيب. بيد أن الحل، كما يُعرض هنا، لا يتألف من موائمة المتناقضات، بل بتطرفها النهائي. ومعنى هذا أن أولئك الذين سيتم إنقاذ مصيرهم سينجون بأنفسهم من خلال توحدهم مع الجانب المضيء من الله. وهو شرط حيوي لما يبدو أنه إنكار كامل للتناسل والحياة الجنسية.

XV

يبدو سفر الرؤيا من ناحية أنه بالغ الذاتية من ناحية، وبالغ النموذجية والجمعية من ناحية أخرى، بحيث أن المرء يضطر لاعتبار الجانبين معاً. إن اهتمامنا الحديث سيتحول أولاً إلى شخص يوحنا، وكما سبق لي القول، من المحتمل أن يكون يوحنا كاتب الرسائل هو نفسه صاحب الرؤيا، والنتائج السيكولوجية ترجّح هذه الفرضية. فقد اختبر المسيحيون الأوائل "الرؤيا"، حيث توجب عليهم أن يعيشوا حياة مثالية، وأن يبرهنوا للشعب الفضائل المسيحية في الإيمان الحقيقي، والتواضع، والصبر، والتقوى، وإنكار الذات، والحب غير الأناني والعزوف عن كل الرغبات الدنيوية. لكن على المدى الطويل أصبح هذا كثيراً، حتى بالنسبة لأكثرهم ورعاً. والأعراض التقليدية لهذه التقوى المزمنة هي الغضب، والمزاج السيء، والانفجارات العاطفية(197). أما فيما يتعلق بالموقف المسيحي، فإن كلام يوحنا هو الأنسب لرؤية الصورة الفضلى:

"أيها الأحبة، ليحبَّ بعضنا بعضاً، لأن المحبة هي الله. وكل من أحب فقد ولد من الله وعرف الله. ومن لا يحب لا يعرف الله لأن الله محبة... في هذه المحبة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل إنه هو الذي أحبنا وأرسل ابنه كفّارة عن خطايانا. أيها الأحبة، إن كان الله قد أحبنا، فهكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً....ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي فينا. الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، ويثبت الله فيه. لا خوف من المحبة، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج. لأن الخوف له عذاب، وأما من خاف فلم يتكمل في المحبة.. إن قال أحد أني أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب، لأن من لا يحب أخاه الذي يبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره. ولنا هذه الوصية منه إن من يحب الله يحب أخاه أيضاً(198).

لكن، من الذي يبغض النيقولاويين؟ ومن الذي يظمأ إلى الانتقام حتى لَيَوَدّ أن يطرح الـ "امرأة إيزابيل" في فراش المرض ويقتل أولادها؟ ومن الذي لا يكتفي من خيالات متعطشة للدم؟ لكن دعونا أن نكون محقين على المستوى السيكولوجي: ليس لا وعي يوحنا من فكّر بهذه الخيالات، بل إنها تهبط عليه رغم إرادته، بشكل عنيف، وبكثافة يمكن القول عنها إنها تتجاوز أياً من توقعاتنا كنوع من التعويض على ما يمكننا تسميته: موقف أحادي الجانب للوعي.

لقد رأيت الكثير من الأحلام التعويضية لمؤمنين مسيحيين خدعوا أنفسهم حول بنيتهم النفسية الحقيقية، وتخيلوا أنهم كانوا في حال مختلف عما كانوا عليه في الواقع. لكني لم أرَ أمراً أبعد شبهاً من الأثر الوحشي الذي تصارعت فيه الأضداد في رؤى يوحنا، باستثناء حالات الجنون المتطرفة. لكن يوحنا لا يُظهر معطيات تجعلنا نشخّصه بهذا الشكل. إن رؤاه الرهيبة ليست مرتبكة بالشكل الكافي، بل إنها بالغة الاتساق، وليست ذاتية أو فاحشة كثيراً. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار طبيعة مادة هذه الرؤى، فإن الآثار المصاحبة لها مناسبة تماماً. وليس بالضرورة أن يكون من يراها هو مريض نفسي مضطرب، بل من الكافي أن يكون رجل دين شغوف بنفسية بالغة الانتظام. لكن من الضروري أن يكون ذا صلة مكثفة بالله، ما يجعله مكشوفاً للانتهاكات بما يتجاوز أي أمر شخصي. إن الإنسان المتدين حقاً، والذي تكمن فيه القدرة لامتدادات غير اعتيادية لـ اللاوعي بشكل فطري، لا بد له أن يكون مستعداً لمخاطرات من هذا النمط.

ليس الهدف من الرؤى الرهيبة إخبار يوحنا، مثل أي كائن بشري عادي، كم من الظل يخفي تحت طبيعته النورانية، بل الهدف هو فتح عينيه المتنبئتين على سعة الله، إذ أن من يحب الله سوف يعرفه الله. وفقط، لأن يوحنا أحب الله وفعل ما بوسعه ليحب أتباعه كذلك، فإن هذه "المعرفة"، معرفة لله، تسببت له بصدمة. وكما حدث مع أيوب، فقد رأى الجانب القاسي والرهيب من يهوه. ولهذا السبب فقد شعر أن عقيدته بالمحبة، هي أحادية الجانب، وقد قام هو باستكمالها مع "عقيدة الخوف": قد يشعر الإنسان بالمحبة تجاه الله، لكنه يجب أن يخشاه.

وبهذا، فإن مدى رؤية الرائي ذهب إلى ما وراء النصف الأول من الحقبة المسيحية: فهو يتكهن بأن حقبة الدجال سوف تبدأ بعد ألف من السنين، وهي إشارة واضحة إلى أن المسيح لم يكن منتصراً. لقد سبق يوحنا بنبوءته الخيميائيين ويعقوب بوهمه(199)، وربما شعر بمشاركته الشخصية في الدراما الإلهية لكونه استشرف احتمالية ولادة الله في الإنسان، والتي استشعرها أيضاً خيميائيون أمثال ميستر إيكهارت Meister Exkhart وإنجيلوس سيليسيوس Angelus Silesius. وبذلك يكون يوحنا قد وضع خطوطاً عريضة لحقبة الحوت التي لا يزال علينا اختبارها بانقلابها الضدي الدراماتيكي ونهايتها المظلمة، والتي، دونأية مبالغة، هي عبارة عن احتمالات رهيبة يقشعر لها الجنس البشري. إن الفرسان المشؤومين الأربعة، هم صخب الأبواق المهدِّد، ولا تزال قوارير الغضب تنتظر، واليوم تخيّم القنبلة الذرية فوق رؤوسنا مثل سيف ديموقليس(200) Damocles. وخلف ذلك كله تتوارى الاحتمالات الرهيبة للحرب الكيمائية، والتي سوف تبذّ الفظائع التي وُصفت في الرؤيا. "أضرم أكواريوس Aquarius النار في قوى لوسيفر الفظة (القاسية)". هل يمكن لأي كان بكامل قواه العقلية إنكار أن يوحنا تنبأ بمنتهى الدقة، وعلى أقل حد، ببعض الأخطار المحتملة التي هددت عالمنا في نهاية الحقبة المسيحية؟ كذلك هو عرف أن النار التي سيتعذب بها الشيطان تصطلي في الملء الإلهي إلى الأزل. ولله جانب آخر رهيب: بحر من النعمة يلتقي مع بحيرة مضطرمة من النار، ونور من المحبة يتوهج مع حرارة مظلمة بغيضة قيل عنها: "تحرق لكنها لا تضيء". تلك هي البشارة الأبدية، التي تتميز عن البشارة المؤقتة: بإمكان المرء أن يحب الله، لكن عليه أن يخشاه أيضاً.

XVI

يتجاوز سفر الرؤيا، والذي جاء موقعه في نهاية العهد الجديد صائباً، إلى ما وراءه، وصولاً إلى مستقبل يقترب، وبوضوح بالغ، من فظائعه التنبوئية. إن القرار الذي اتخذه عقل مثل هيروستراتس(201)، في لحظة لا تعبأ بالعواقب، قد يكون كافياً لإطلاق جوائح العالم، إن الخيط الذي يربط أقدارنا لهو بالغ الرقة. لم تكن الطبيعة، بل هي "عبقرية الجنس البشري" حاكت لنا حبل المشنقة، بحيث أصبح بمقدور الجنس البشري أن ينفذ حكم الشنق بنفسه بأي لحظة. وهذه بكل بساطة هي طريقة محدّثة لما أسماه يوحنا "غضب الله".

ولسوء الحظ، ليس لدينا أية وسيلة كي نتصور كيف تمكّن يوحنا ـ وإن كان كما سبق لي التخمين، هو مؤلف الرسائل نفسه ـ من الانسجام مع الجانبين المتناقضين لله. من المحتمل، بل لنقل من المرجح، أنه لم يكن مدركاً لوجود أي تناقض. ومن المدهش كيف أن غالبية الناس لا يتفكرون في الموضوعات الإلهية، بل يحاولون التأقلم معها كما هي، وكم تصبح المهمة شاقة حالما نباشر القيام بذلك. إن ألوهة الشيء تصعّب مهمة التعامل معه عقلياً، إذ أن عواطفنا مرتبطة به دائماً. فالمرء هو دائماً مع أو ضد، ومسألة أن يكون المرء "موضوعياً بالمطلق" يندر تحقيقها في هذا الموقع أكثر من أي موقع آخر. إن كان لدى المرء قناعات دينية إيجابية، أي إنه مؤمناً فستكون مسألة التشكك خلافية، كما أن المرء سيخشاها. وبالنسبة لامرىءٍ كهذا، يُفضّل ألاّ نقوم بتحليل مسألة العقيدة. في حين إن لم يكن لدى المرء قناعات دينية، فهو بالتالي لن يرغب بالاعتراف بشعوره بالعجز، بل سيتبجح عالياً حول ليبرالية تفكيره، ويربّت على كتف ذاته تحية على صراحته النبيلة حول اللاأدرية(202) agnosticism. ومن هذا الاستشراف يكون من الصعوبة بمكان الاعتراف بألوهية الموضوع الديني، ومع ذلك فإن الألوهية تقف عائقاً أمام العقل النقدي، وذلك بسبب الإمكانية المزعجة التي يمكن أن تبيّن أن إيمان المرء بالتنويرية أو اللاأدرية قد يتزعزع. فكلا النمطين قد يشعر، دونما أنيدرك ذلك، بعدم كفاية حجته. فالفكر التنويري يشتغل بمفهوم عقلاني قاصر عن الحقيقة، ويشير بزهو إلى حقيقة أن قناعات مثل: الولادة من عذراء، والبنوّة الإلهية، وانبعاث الموتى، والقربان المقدس(203) transubstantiation ، إلخ.. كلها لغو كلام. واللا أدرية تدّعي بأنها لا تعرف شيئاً عن الله أو عن أي أمر آخر ميتافيزيقي، متجاهلة تماماً حقيقة أن ليس المرء من يمتلك إيماناً ميتافيزيقياً، بل إن الإيمان هو من يتملّكه. إن كلا النمطين مأخوذان بمنطق يمثّل وسيطاً أسمى لا يمكن محاججته. لكن من أو ما هو هذا "المنطق"، ولماذا يجب أن يكون هو الأسمى؟ أليس الشيء الموجود وذو الوجود الحقيقي هو بالنسبة إلينا سلطة عليا لكل حكم عقلي كما أظهر مرة تلو المرة عبر تاريخ العقل البشري؟ لسوء الحظ فإن المدافعين عن "الإيمان" يشتغلون بالحجج العقيمة ذاتها، مع فارق وحيد هو أنها تأتي من الاتجاه المقابل. والشيء الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك هو أن هنالك إبانات ميتافيزيقية يتم تأكيد أو نفي أثرها الهائل، وتحديداً بسبب ألوهيتها. وتمنحنا هذه الحقيقة أساساً تجريبياً ثابتاً ننطلق منه. إنها حقيقة موضوعية بما هي عليه من ظاهرة نفسية. ويمكن تطبيق الأمر ذاته على كافة الإبانات، حتى أشدها تناقضاً، والتي كانت ومازالت إلهية. من الآن فصاعداً سوف نأخذ بعين الاعتبار الإبانات الدينية بكليّتها.

XVII

وبالعودة إلى مسألة الانسجام مع الفكرة المتناقضة عن الله، والتي تكشفها لنا الرؤيا. فالمسيحية البروتستانتية، بمعناها المتشدد، ليست بحاجة للقلق، كونها تقوم على تلك العقيدة الأساسية القائلة بأن الله، وعلى النقيض من يهوه، هو الخير المطلق. وقد كان الأمر مختلفاً تماماً لو أن يوحنا صاحب الرسائل اضطر لمناقشة هذه الأمور مع يوحنا صاحب الرؤيا. وفي وقت لاحق، تمكنت الأجيال من تجاهل الجانب المظلم في الرؤيا، لأن الإنجاز المسيحي لم يكن أمراً يمكن أن يتعرض للخطر ببساطة. لكن بالنسبة للإنسان المعاصر يختلف الموضوع تماماً، فنحن اختبرنا أشياء مجهولة ومذهلة تماماً، بحيث أن مسألة ما إذا كانت مثل هذه الأمور قابلة للتوافق بأي شكل من الأشكال مع مسألة الله الخيّر، قد أصبحت موضوع نقاش محتدم. ولم تعد هذه مشكلة فقط بالنسبة لخبراء مدارس اللاهوت، بل هي كابوس ديني عالمي، وصولاً إلى الحل الذي يجعل بإمكان العلماني الباحث في اللاهوت مثلي ـ بل ربما يتوجب عليه ـ الإدلاء بدلوه في هذا الموضع.

لقد حاولتُ أعلاه استعراض نتائج لا مفر من استخلاصها، وباعتقادي أن المرء سيصل إليها حالماً يتطلع في التقليد بمنطق نقدي سليم. وإن واجه المرء، بهذا المنطق، فكرة متناقضة عن الله، أو تأمل، بصفته شخصاً متديناً، في الوقت نفسه المحتوى الكامل للمشكلة، فسيجد نفسه في موقع مؤلف الرؤيا، الذي بإمكاننا الافتراض أنه كان مسيحياً موقناً. إن احتمالية توحّد صاحب الرؤيا مع صاحب الرسائل تبرز حدة التناقض: ما هي الصلة بين هذا الإنسان والله؟ وكيف أمكنه تحمّل التناقض في طبيعة الألوهة؟ وعلى الرغم من جهلنا التام بقراره الواعي، إلا أننا نعتقد بإمكانية العثور على دليلٍ له في رؤيا المرأة ـ الشمس في المخاض.

إن لطبيعة الله المتناقضة أثراً مشابهاً لدى الإنسان: فهي تمزّقه إرباً إلى أضداد، وتقحمه في صراع عقيم بحسب ما يبدو. أما ما الذي يحدث في حالة كهذه؟ هنا ينبغي أن نترك الحديث لعلم النفس، إذ أن علم النفس يمثل مجموع كافة الملاحظات والأفكار المتأتّية عن الدراسة التجريبية على حالات صراع حادة. فهناك مثلاً مسألة صراع الواجب الذي لا يعرف أحد كيفية حلّه. كل ما يعرفه الوعي هو: هنالك أمر ثالث لا يمكنه تحديده. وهكذا، ينصح الطبيب مريضه بالتروي ليرى إن كان بمقدور لا وعيه إنتاج حلم يتضمن شيئاً لا عقلانياً، وبالتالي ظهور أمر ثالث غير متوقع ليكون بمثابة حل لهذا الصراع.

ومن خلال خبرتنا في هذا المجال، فإن الرموز التي تظهر في الأحلام هي تلك الرموز ذات الطبيعة المتوافقة والموحّدة، وأكثرها تكراراً هي تلك المتصلة بالولد ـ البطل وتربيعة الدائرة التي تعني وحدة الأضداد. أما أولئك المفتقرون إلى الخبرة الطبية فإنهم يستقون التعليمات العملية من القصص الخيالية، وتحديداً من علم الخيمياء. فالموضوع الحقيقي في الفلسفة الهرمسية(204) Hermetic Philosophy هو توحيد الأضداد. فمن ناحية تعرف الخيمياء "ولدها" على أنه الحجر (مثلاً العقيق الأحمر)، ومن ناحية أخرى على أنه القزم أو الابن العاقل، أو حتى الإنسان الأعلى. وهذا هو تحديداً الرمز الذي نجده في الرؤيا على أنه ابن المرأة ـ الشمس، والذي تبدو ولادته كأنها مقطع من ولادة المسيح، وهو مقطع كرره الخيميائيون بصيغات متنوعة. والحق أنهم

يضعون "حجرهم" في مكانة موازية لمكانة المسيح (باستثناء وحيد وهو عدم ذكر سفر الرؤيا). ويظهر هذا الرمز من جديد في هيئة وحالة متطابقتين في أحلام الإنسان المعاصر، وذلك دونما وجود أية صلة مع الخيمياء، بل هو يجمع دائماً ما بين النور والظلام. لكأن الإنسان المعاصر، وتماماً كما فعل الخيميائيون، تكهّن بماهيّة المشكلة التي طرحتها الرؤيا للمستقبل. لقد كانت هي المشكلة التي أشغلت الخيميائيين قرابة سبعة عشر قرناً، وهي ذاتها المشكلة التي تقلق الإنسان المعاصر. ومع أنه صار يعرف عن بعض الأشياء أكثر مما كان يعرفه الخيميائيون، إلا أنه يعرف أقل منهم في نواحٍ أخرى. لم تعد المشكلة بالنسبة له منصبّة على المادة، مثلما كانت بالنسبة لهم، بل أصبحت معضلة سيكولوجية، وبذلك أصبح لدى الطبيب النفسي ما يقوله عن هذه الأمور أكثر مما لدى اللاهوتي، الذي أصبح أسير لغته المجازية البالية. فالطبيب النفسي، وكثيراً ما يكون مجبراً على فعل ذلك، تضطره المشكلات العصابية النفسية التي يتعامل معها إلى إنعام النظر في المسائل الدينية. وليس دون سبب وجيه وصلت إلى سنتي السادسة والسبعين هذه قبل أن أغامر بمساءلة نفسي وإيجاد الإجابات على طبيعة تلك "الأفكار السائدة" التي تقرر سلوكياتنا الأخلاقية، ولها تأثير كبير على حياتنا العملية. ففي نهاية الأمر هذه الأفكار هي المبادئ التي تحكم قراراتنا الأخلاقية، سواء كانت معلنة أم غير معلنة، وعليها يعتمد وجودنا في السرّاء والضرّاء. إن كافة هذه الأفكار السائدة تتوّج في فكرة الله سواء كانت إيجابية أم سلبية(205).

منذ أن اختبر يوحنا صاحب الرؤيا لأول مرة (ربما دون أن يعي ذلك) الصراع الحتمي الذي كانت ستؤدي إليه المسيحية، رزحت البشرية تحت هذا العبء: أراد الله أن يصبح إنساناً، ولا يزال يرغب بذلك لغاية الآن. لعله هذا هو سبب اختبار يوحنا في رؤياه ولادة ثانية لابن تلده الأم صوفيا/ الحكمة، هي ولادة إلهية تميزت بتوحيد الأضداد، وتنبّأت بقدوم الكائن العاقل وهو جوهر عملية التمايز(206) Individuation process. لقد كان هذا هو أثر المسيحية في واحد من مسيحيّي العصور الأولى، والذي عمّر طويلاً، وبعزم، ليتمكن من إلقاء نظرة على المستقبل البعيد. لقد سبق تضمين الوساطة بين الأضداد في رمزية قدر المسيح في مشهد الصلب، حيث صلبَ الوسيط ما بين اللصين اللذين سيذهب أحدهما إلى الجنة، والثاني إلى الجحيم. وتبعاً للنظرة المسيحية فإن التضاد لا بد أن يكون ما بين الله والإنسان، إذ لطالما كان الإنسان محفوفاً بخطر توحّده مع الجانب المعتم. هذا بالإضافة إلى الإلماحات القدرية التي صدرت عن الله وتركت على يوحنا بالغ أثرها: لن ينجو إلا من كتبت له النجاة في الأزل، أما السواد الأعظم من الناس فسيهلكون في الكارثة النهائية. لقد ورثت المسيحية التضادّ بين الله والإنسان عن يهوه من غابر الأيام، وذلك عندما تشكّلت المشكلة الميتافيزيقية حصراً في العلاقة بين يهوه وشعبه، إذ كان الخوف من يهوه أكبر من أن يجرؤ أي كان - وعلى الرغم من علم أيوب بهذا الأمر - على إسقاط التضاد على الألوهة بحد ذاتها. وفي حال حافظنا على التضاد ما بين الله والإنسان، فسينتهي بنا المطاف - سواء أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا - إلى الخاتمة المسيحية: "الخير من الله، الشر من الإنسان". ومعها النتيجة السخيفة التي تفضي بنا إلى القول بأن المخلوق هو في موقع التضاد مع الخالق، وأن الشر العظيم الشيطاني أو الكوني يُنسب إلى الإنسان. إن الإرادة التدميرية الرهيبة التي اندلعت في وجدان يوحنا، لتعطينا فكرة عن معنى كون الإنسان في موقع التضاد مع إله الخير: إذ تلقي عليه عبء الجانب المظلم لله، وهو الجانب الذي بقي في مكانه الصحيح لدى أيوب. لكن، وبكافة الأحوال، فإن الإنسان يتوحد مع الشر لتكون النتيجة: إما أنه يقف في وجه الشر، أو أنه يحاول أن يصبح كاملاً كأبيه في السماوات.

إن قرار يهوه بأن يصبح إنساناً لهو عبارة عن رمز للتطور الذي كان حدوثه حتمياً حالما يعي الإنسان ماهيّة صورة الله(207) التي أمامه. فالله يعمل من خلال لاوعي الإنسان، ومن ثم يجبره على تنسيقه وتوحيد التأثيرات المضادة التي يتعرض لها عقله من لا وعيه. في حين أن اللاوعي يريد الاثنين معاً: التقسيم والتوحيد. وبالتالي وفي أثناء سعيه إلى الوحدة، يعتمد الإنسان دوماً على معونة المحامي الميتافيزيقي، وذلك كما أدرك أيوب بكل وضوح. يريد اللاوعي عبور الوعي للوصول إلى النور، لكنه في الوقت ذاته ينأى بذاته، إذ أنه يفضّل أن يبقى لاشعوراً. وبعبارة أخرى، يريد الله أن يصبح إنساناً، إنما ليس تماماً. فالصراع القائم في طبيعته بالغ الشدة إلى درجة أنه لا يمكن أن يتم التجسّد إلاّ بتضحية تكفيرية بالذات لصالح غضب الجانب المظلم لله.

في البداية جسّد الله جانبه الخيّر لكي يُرسي ـ كما نفترض ـ الأساس الأكثر متانة، والذي يصلح لاستيعاب جانبه الآخر لاحقاً. ومن الوعد بالفارقليط يمكننا استنتاج أن الله يريد أن يصبح بكلّيته إنساناً. وبكلمات أخرى، هو يريد استيلاد نفسه في مخلوقه المظلم (أي في إنسان غير بريء من الخطيئة الأصلية). لقد ترك لنا مؤلف سفر الرؤيا شهادة على الفعل المستمر للروح القدس، بما يعني استمرارية حصول التجسّد. لقد كان إنساناً مخلوقاً اجتاحه إله الغضب والانتقام المظلم – "الريح المحرقة". (ولعل هذا الـ يوحنا كان المريد المفضّل الذي أعطي موهبة التنبؤ بالتطورات المستقبلية). وإذ ولّد فيه هذا الاجتياح المزعج صورة طفلٍ إلهي ومخلّص مستقبلي، فإن هذا الطفل هو ثمرة زواج سماوي، تلده زوجة سماوية يعيش انعكاسها (الأنيما/الأنثى(208) anima في كل إنسان. كذلك شاهد ميستر إيكهارت Meister Eckhart في رؤاه هذا الطفل، وكان هو، ميستر إيكهارت، من عرف أن الله وحده في ألوهيته، ليس في حالة من النعيم، بل عليه أن يولد في روح بشرية ـ وبذلك كان التجسد في المسيح هو النموذج الأول الذي يتولى الروح القدس تحويله إلى مخلوق بصورة دائمة.

ولمّا كان من الصعوبة بمكان مقارنة سلوكنا الأخلاقي بسلوك أحد المسيحيين الأوائل مثل يوحنا، كذلك هو الأمر مع كافة سلوكيات الخير والشر، وبخاصة المحبة، والتي يمكنها أن تجتاحنا. أما الرغبة المطلقة بالتخريب، مثل تلك الرغبة الجليّة عند يوحنا، فلا يمكننا أن نتوقع وجودها لدينا. فمثلاً من جهتي، لم أعرف طيلة حياتي المهنية حالة مشابهة لحالة يوحنا، إلا في أشد حالات الجنون تطرفاً، أو في حالات جنون الإجرام. وكنتيجة للتميّز الروحي الذي عززته حركة الإصلاح الديني، ومع تطور العلوم تحديداً (تلك العلوم التي لقنها منذ البدء الملائكة الذين سقطوا) فإن هنالك امتزاجاً كبيراً مع الظلام في داخلنا، بحيث أنه وبالمقارنة مع نقاء القديسين المسيحيين الأوائل (وأيضاً مع قديسين من المراحل المتأخرة)، فإن سوادنا النسبي لا يساعدنا البتة، وعلى الرغم من كونه يخفف من أثر قوى الشر، إلا إنه يجعلنا أكثر تأثراً وأقل قدرة على مقاومتها. وبذلك فإننا نحتاج إلى المزيد من الضوء، والمزيد من الخير، والمزيد من قوة الأخلاق، ليكون علينا أن نتطهّر أكثر مما يمكننا من السواد البغيض، وإلاّ لن يصبح بمقدورنا تمثّل الإله المظلم الذي يريد أيضاً أن يصبح إنساناً، إذ علينا في الوقت ذاته أن نحتمله دون أن نتعرض للهلاك. ولتحقيق ذلك علينا التمسك بكافة القيم المسيحية، بل وزيادة عليها، فالمشكلة ليست أخلاقية فقط، إذ أننا نحتاج أيضاً إلى الحكمة التي كان يبحث عنها أيوب. لكن الحكمة في ذلك الوقت كانت مختبئة في يهوه، أو أنه لم يكن قد تذكرها إلى حينه.

إن "الإنسان الأسمى" و"الكامل"، هو إنسان مولود لأب "مجهول" من "الحكمة"، وهو أيضاً على شكل "الطفل الأبدي" – "ذو السمات المتغيرة البيضاء والسوداء معاً"، إنه يمثل كلّيتنا التي تتجاوز الوعي. لقد كان ذلك هو الصبي الذي تعيّن على "فاوست" أن يصبحه، متخلياً عن تحيّزه المتضخم الذي رأى الشيطان في الخارج. وإن قول المسيح: "إن لم تعودوا كالأطفال" لهو تصوّر مسبق لهذا التحوّل، إذ في الأطفال تكمن الأضداد متقاربة بعضها إلى بعض. لكن المعني هنا هو "الطفل" الذي يولد من رجل ناضج، وليس من لاوعي طفل نسعى لأن نكونه دائماً. وبالتطلّع إلى الأمام، نجد أن المسيح أيضاً ألمح، كما ذكرتُ آنفاً، إلى أخلاقية الشر.

فجأة وبشكل غريب، حتى لكأنها لا تنتمي إلى هناك، تظهر المرأة – الشمس مع ابنها في سياق الرؤى. إن ابنها ينتمي إلى عالم مستقبلي آخر، وهكذا، مثل مسيح اليهود، فإن الطفل "مخصصٌ لله" ويجب أن تبقى أمه لوقت طويل مخفية في البراري، حيث يطعمها الله. لم تكن المشكلة الحتمية والعاجلة في تلك الأيام اتحاد الأضداد، وهي مشكلة مستقبلية، بل هي في تجسّد النور والخير، وإخضاع الشهوة في هذا العالم، ورصّ الصفوف في "مدينة الله" لمواجهة الدجال القادم بعد ألف سنة للإعلان عن أهوال اليوم الآخر، وظهور إله الغضب والانتقام. فالخروف الذي استحال كبشاً شيطانياً يكشف لنا عن "بشارة" جديدة، فهو "البشارة الأزلية" التي تتجاوز محبة الله مباشرة، وقوامها الرئيسي هو الخوف من الله. وبذلك فإن الرؤيا تختتم، مثل سياق التمايز التقليدي، برمزية العرس السماوي (إيناس توحيد مع باقي النص): زواج الابن من الأم – العروس. لكن هذا الزواج يُعقد في السماء عالياً بعيداً عن العالم المخرّب، حيث لا يدخل "أي شيء نجس"، فالنور يتعانق مع النور. هكذا هو البرنامج المعدّ للحقبة المسيحية، التي يجب أن يتم تنفيذها قبل أن يتمكن الله من تجسيد نفسه في الإنسان المخلوق خلقاً.

وفي الأيام الأخيرة فحسب ستتحقق رؤيا المرأة ـ الشمس. واعترافاً منه بهذه الحقيقة، أعلن البابا مؤخراً عن عقيدة صعود جسد مريم العذراء إلى السماء، لقد كان هذا ما أدهش كافة العقلانيين، بيد أنه من الواضح استوحى ذلك من أعمال الروح القدس. لقد توحدت مريم العروس مع الابن في مخدع الزوجية السماوي، وصوفيا/الحكمة مع الألوهية العظمى(209).

إن هذه العقيدة ملائمة بكل وجه من الأوجه، فهي أولاً تحقيق رمزي لرؤيا يوحنا(210). وثانياً، هي تتضمن إلماعة إلى زواج الخروف في آخر الزمان. وثالثاً، هي تعيد ذكرى صوفيا المذكورة في أسفار "العهد القديم". وتتنبأ هذه الإشارات الثلاث بتجسّد الله، وبينما تتنبأ الثانية والثالثة بتجسّد الله في المسيح(211)؛ فإن الأولى تتنبّأ بتجسّده في الإنسان المخلوق خلقاً.

XVIII

الآن أصبح كل شيء يعتمد على الإنسان، بعد أن مُنح قدرة هائلة على التدمير، وأصبح السؤال هو ما إذا سيتمكن من مقاومة استخدام هذه القدرة، أو أن يضبط رغباته بروح المحبة والحكمة. والحق أنه لن يتمكن من ذلك بسهولة اعتماداً على موارده الحالية دون مساعدة، فهو يحتاج إلى مساعدة "المحامي" في السماوات. هذا المحامي هو الطفل الذي لحق بالله وقدم له "العلاج"، وجعل من الإنسان المتشظّي، إلى الآن، كلاً موحداً. ومهما تكن كلّية الإنسان، أو النفس، تعني بحد ذاتها، فهي تعني تجريبياً أنها صورة لهدف الحياة، وقد تم إنتاجها عفوياً من قبل اللاوعي بمعزل عن رغبات الوعي ومخاوفه.

تمثّل النفس الهدف الذي يسعى الإنسان الكلّي إلى تحقيقه وصولاً لإدراك كليّته وفرديته، سواء وافقت إرادته على ذلك أم لم توافق. إن ديناميكية هذا السياق هي الغريزة، والتي تؤكد أن كل ما يمتّ إلى حياة الفرد بصلة سيدخل في هذه الحياة لا محالة، سواء أرضي بذلك أم لم يرض، وسواء كان واعياً لما يحدث له أم لم يكن كذلك. ومن الواضح أن ثمة فرقاً كبيراً بين أن يكون المرء عارفاً بما يختبره أم لم يكن، وفيما إذا كان مستوعباً لما يفعله، وقابلاً لتحمل مسؤوليته عما يكون قد فعله سابقاً، أو ما ينوي فعله لاحقاً. إن الفرق بين إدراك الوعي والافتقار إلى هذا الإدراك قد صاغه المسيح بقوله: "أيها الإنسان إنك إن عرفت ما أنت تفعل فأنت مبارك، وإن أنت لم تعرف فأنت ملعون، ومتعدّ لحدود الناموس(212)". وأمام حاجز الطبيعة والقدر لا يصح أبداً قبول عذر "اللاوعي"، بل على العكس من ذلك، هنالك عقوبات صارمة بالانتظار. ومن هنا تتوق الطبيعة اللاواعية إلى نور الوعي، بينما تقاومه بشكل محموم في الوقت نفسه.

إن الإدراك الواعي للأسرار الخفية سيضعنا في مواجهة صراع لا حلّ له، على الأقل هذا ما يبدو للعقل الواعي. لكن الرموز التي تبزغ من اللاوعي على شكل الأحلام تُظهر هذا النزاع على أنه مواجهة بين أضداد، كما تمثل صورة الهدف على أنها تسوية ناجحة. ومن أعماق طبيعتنا اللاواعية يهب شيء ما لمساعدتنا، يمكن البرهنة عليه بالتجربة، وبالتالي تصبح مهمة العقل الواعي فهم هذه الإشارات. وإن لم يحدث هذا الأمر، فإن عملية التمايز لن تستمر على الإطلاق. هنا سيكون الفارق الوحيد أننا أصبحنا ضحايا القدر، حيث قام بجرّنا باتجاه هدف لا مناص لنا منه، وربما كنا سنصل إليه بكامل إرادتنا، فقط لو أننا كلّفنا أنفسنا مشقة ذلك، وتحلّينا بصبرٍ كافٍ لفهم معنى الأرواح التي تعترض طريقنا. لكن الأمر الوحيد الذي يهمنا الآن، هو معرفة ما إذا كان بمقدور الإنسان الارتقاء إلى مستوى أخلاقي أعلى، وإلى مستوى أعلى من كلا الوعيين ليكون مساوياً للقوى فوق البشرية التي وضعتها الملائكة التي سقطت بين يديه. لكن ليس بإمكان المرء الارتقاء بذاته ما لم يصبح أكثر دراية بطبيعته الشخصية.

لسوء الحظ، هنالك جهل مرعب يخيم على هذا الجانب، كما يوجد نفور بالغ تجاه معرفة الإنسان المتزايدة بشخصيته الجوهرية. لكن، وبأكثر الجوانب بعداً عن توقعاتنا، فإننا نجد أشخاصاً لم يعد بمقدورهم تجاهل حقيقة أن هنالك شيئاً ما يتوجب على الإنسان فعله فيما يتعلق بسيكولوجيته. ومن سوء الحظ أيضاً، فإن الكلمة الصغيرة "يجب" تخبرنا أنهم لا يعرفون ما العمل، ولا يعرفون

الطريق للوصول إلى الهدف. بإمكاننا بالطبع عقد الأمل على نعمة لا نستحقها من الله الذي يسمع صلواتنا، لكن الله، والذي هو أيضاً يستمع إلى صلواتنا، يرغب بأن يصبح إنساناً، ولهذه الغاية تحديداً فقد اختار من خلال الروح القدس، الإنسان المخلوق خلقاً، والممتلئ بالعتمة، الإنسان الطبيعي الذي لوّثته الخطيئة الأصلية، والذي تعلّم الفنون والعلوم الإلهية من الملائكة الذين سقطوا. إن الإنسان الخاطئ هو إنسان مناسب بشكل واضح، ولهذا السبب اختير ليكون وعاءاً للتجسّد المستمر، وليس الإنسان المبرّأ من الخطيئة والذي ينأى بعيداً عن العالم، ويرفض أن يدفع ضريبته للحياة، ففيه لن يجد الإله المظلم متسعاً له.

من رؤيا يوحنا نعرف من جديد أنه يجب ألاّ نحب الله وحسب، بل وأن نخشاه أيضاً. فهو يملؤنا بالشرور كما بالخير، ولولا ذلك لما اقتضت الحاجة أن نخشاه. وكون الله يريد أن يصبح إنساناً، فإن وحدانية تناقضه لا بد أن تحدث في الإنسان. ويزيد هذا الأمر من المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان، إذ لم يعد بمقدوره التنصل منها بحجة ضآلته وَضِعة مكانته، فالإله المظلم قد وضع بين يديه القنبلة الذرية والأسلحة الكيماوية، ومنحه القدرة على إفراغ قوارير الغضب التي أشارت إليها رؤيا يوحنا، على إخوانه المخلوقين من بني البشر. ونظراً لأنه قد مُنح قدرة إلهية، لم يعد بمقدوره إعماء بصره وتجاهل لاوعيه. لا بد أنه يعرف أمراً عن طبيعة الله والسياقات الميتافيزيقية إن كان سيفهم نفسه، وبالتالي يصل إلى معرفته بما هو إلهي.

XIX

ربما كان الإعلان عن العقيدة الجديدة المتعلقة بصعود مريم العذراء سبباً كافياً بحد ذاته لتفحّص الخلفية السيكولوجية الكامنة وراءه. ولكن كان أمراً ملفتاً للانتباه ملاحظة عدم وجود أي مقال من بين المقالات العديدة التي نُشرت في الصحافتين الكاثوليكية والبروتستانتية عن الإعلان عن هذه العقيدة، لم يكن هنالك مقال واحد، من بين المقالات التي اطلّعت عليها، قد أولى تأكيداً لائقاً حول الدافع الأكثر قوة بلا شك: وأعني تحديداً الحركة الشعبية والحاجة السيكولوجية الكامنة خلف العقيدة الجديدة. أساساً، كان كتّاب المقالات راضين بالاعتبارات العقائدية والتاريخية المعروفة، والتي لا تمت بصلة إلى السياق الديني الحي. لكن كائناً من كان هذا الذي اتّبع باهتمام رؤى مريم العذراء ـ والتي تزايد عددها خلال العقود القليلة الفائتة ـ وأخذ بعين الاعتبار دلالاتها السيكولوجية، فقد يكون عرف ما الذي كان يختمر تحت السطح. وبخاصة، أن تلك الحقيقة القائلة بأن أغلب من شاهد هذه الرؤى كانوا من الأطفال، ربما تستدعي هذه الحقيقة التوقف لحظة والانتباه إليها. إذ في معظم الحالات، يشتغل اللاوعي الجمعي دون توقف. وبالمناسبة، فقد أشيع أن البابا نفسه شاهد رؤى متعددة عن أم الله في مناسبة الإعلان. وربما كان المرء قد عرف لوقت طويل أن هنالك توقاً من الجماهير لشفيعة ووسيطة بإمكانها في نهاية الأمر أن تحتل مكانتها إلى جانب الثالوث المقدس، ويتم تلقيها بصفتها "مليكة في السماء، وعروس في البلاط السماوي". ولما يزيد عن الألف سنة كان من المسلّمات أن أم الله مقيمة هناك، فقد أعلمنا "العهد القديم" أن صوفيا/الحكمة كانت مع الله قبل الخليقة. وكما يُعلمنا اللاهوت المصري القديم حول الفراعنة الآلهة، يريد الله أن يصبح إنساناً عن طريق أم بشرية. وكما كان معروفاً حتى في أزمنة ما قبل التاريخ، فإن الكائن الإلهي البدئي هو عبارة عن مذكر ومؤنث في آنٍ معاً. لكن مثل هذه الحقيقة تحدث في الزمن فقط عندما يتم الإعلان عنها رسمياً، أو عندما يتم إعادة اكتشافها.

من الأهمية بمكان على الصعيد السيكولوجي في يومنا هذا من عام 1950 أن تتحد العروس السماوية مع العريس. ولكي نتمكن من تفسير هذا الحدث، فلا بد لنا أن نأخذ بعين الاعتبار الحجج التي وردت في البيان البابوي من ناحية، والتصورات المسبقة الرؤيوية لزواج الخروف من ناحية أخرى، بالإضافة إلى ذكريات صوفيا/الحكمة في العهد القديم. ويدلّ الزفاف الذي يحدث في المخدع (مخدع الزوجية) إلى العرس السماوي، وهذا بدوره سيكون الخطوة الأولى باتجاه التجسّد، أي باتجاه ميلاد المخلّص الذي يُعتقد أنه كان، منذ الأزل، ابن الشمس والقمر، ميلاد الابن العاقل والمكافئ للمسيح. لذلك عندما يعبّر الناس عن توقهم لتمجيد أم الله، فإن هذه النزعة تعني، في حال وصلت إلى نهايتها المنطقية، وجود الرغبة بولادة المخلص وصانع السلام و"وسيط السلام الذي يصلح ما بين الأعداء"، وعلى الرغم من أنه وُلد من قبل في حالة الملء، بيد أن ولادته في الزمان لن تكتمل إلاّ عندما يتلقاها ويدركها ويعلنها الإنسان.

لا يتوقف الدافع والمحتوى للحركة الشعبية، والتي ساهمت في إعلان قرار البابا العقيدة الجديدة، على ميلاد إله جديد فحسب، بل وعلى استمرارية تجسّد الله التي بدأت مع المسيح. إن المحاججات المبنية على النقد التاريخي سوف لن تكون منصفة للعقيدة الجديدة، بل على النقيض من ذلك، فهي،

وبشكل مؤسف، بعيدة تماماً عن الهدف، كما هي المخاوف غير المسوّغة والتي عبر عنها الأساقفة الإنجليز.

ففي المقام الأول، لم يغير الإعلان عن العقيدة الجديدة من حيث المبدأ شيئاً من الأيديولوجية الكاثوليكية، بما أنها موجودة لأكثر من ألف عام. وفي المقام الثاني، فإن الفشل في استيعاب فكرة أن الله، ومنذ الأزل، أراد أن يصبح إنساناً، ولهذا السبب بالذات، هو يعيد التجسّد في الروح القدس باستمرار في الفُلك الدنيوي، وهذا أمارة مُنذرة ويمكن أن تحمل معنى واحداً فقط: لقد فقدت وجهة النظر البروتستانية أساسها مع فقدانها لمعرفة الإشارات الزمانية، وتجاهلها السياق المستمر للروح القدس. من الجلي أن وجهة النظر هذه بعيدة كل البعد عن مصادفات بدئية هائلة في روح الفرد والجماعة. كذلك هي بعيدة عن رموز يُراد لها في يومنا هذا التعويض عن حالة رؤيا العالم الحقيقية(213). ويبدو أن وجهة النظر البروتستانتية هذه استسلمت لنوع من التأريخية العقلانية، لتفقد أي فهم للروح القدس والذي يعمل في أماكن مخفية من الروح. وبذلك عجزت عن فهم أو الاعتراف بوجود وحي جديد في الدراما الإلهية.

لقد منحني هذا الظرف، بصفتي علمانياً باحثاً في اللاهوت، سبباً لطرح وجهة نظري بهذه المسائل المظلمة. وتستند محاولتي هذه إلى خبرتي السيكولوجية التي تحصّلتُ عليها جراء الممارسة العملية الطويلة في حياتي. أنا لا أنتقص من قيمة الروح على أي مستوى كان، كما أني لا أتصوَّر للحظة أن المصادفات السيكولوجية تتلاشى في الأثير عندما نقدم تفسيراً لها. إن النفسانوية (النزعة النفسانية) Psychologism تمثل أسلوباً بدائياً صامتاً من التفكير السحري، يأمل المرء بمساعدته من أن يتمكن من استحضار حقيقة الروح من الوجود، وذلك على طريقة "بروكوفتاسمت" في "فاوست":

أما زلت هنا؟ كلا، إنه لشيء لا يُسمع.

تلاشَ حالاً! لقد نطقنا بالكلمة المنيرة.

يخطئ من يماثل ما بين وجهة نظري ووجهة النظر الصبيانية هذه. لكن، لطالما سُئلت فيما إذا كنت أعتقد بوجود الله أم لا، حتى لينتابني القلق من أن يتم احتسابي في عداد أنصار النفسانوية بصورة أشمل مما يمكنني التفكير به. وما يبدو أن معظم الناس يغفلون عنه، أو هم غير قادرين على فهمه، هو حقيقة أني أعتبر أن الروح هي حقيقة. في حين أنهم يؤمنون فقط بالحقائق الفيزيائية، وبالتالي لا بد أنهم سيتوصلون إلى النتيجة القائلة بأن اليورانيوم وحده، أو التجهيزات المخبرية، هي من اخترع القنبلة الذرية. وهذه النتيجة لا تقل سخفاً عن افتراض أن روحاً غير حقيقية هي المسؤولة عن ذلك. فالله هو حقيقة سيكولوجية جليّة وإن كانت غير فيزيائية في الوقت ذاته. وعلى حدٍ سواء، فإن مثل هؤلاء الأشخاص لا يزالون غير قادرين على استيعاب أن سيكولوجية الدين تقع ضمن فئتين، يجب التمييز بمنتهى الوضوح فيما بينهما: الفئة الأولى هي سيكولوجية الشخص المؤمن، والفئة الثانية هي سيكولوجية الدين الأصلي (الحقيقي)، أي المحتوى الديني.

وبصورة رئيسية، فإن خبراتي العملية في المجال السيكولوجي هي ما أمدتني بالشجاعة الكافية لأخوض نقاشات في مسألة الدين، وبخاصة فيما يتعلق في حسنات وسيئات عقيدة صعود مريم العذراء، والتي أعتبرها، بالمناسبة، الحدث الديني الأكثر أهمية منذ حركة الإصلاح

الدينيReformation . لكنها بالنسبة للعقل غير السيكولوجي فضيحة مجلجلة: كيف يمكن لتوكيدٍ كهذا أن يدّعي، ودونما أساس ثابت، أن استقبال جسد العذراء في السماء هو أمرٌ جدير بالإيمان؟ لكن المنهجية التي استخدمها البابا لبرهان حقيقة العقيدة، هي منهجية منطقية بالنسبة للعقل السيكولوجي، كونها تستند أولاً على التصور المسبق الضروري، وثانياً على تقليد التوكيدات الدينية التي تعود لأكثر من ألف عام. من الواضح، أن الدليل المادي على وجود هذه الظاهرة السيكولوجية هو أمر أكثر من كافٍ، وليس من المهم أبداً توكيد الحقيقة المستحيلة فيزيائياً، لأن كافة التوكيدات الدينية هي مستحيلات فيزيائية. ولو لم تكن كذلك، كما ذكرتُ سابقاً، لكان من الضروري معالجتها في نصوص كتب علوم الطبيعة. لكن الإبانات الدينية، وبلا استثناء، هي ذات صلة بحقيقة الروح/ النفس، وليس بحقيقة الفيزياء.

إن ما يثير حنق وجهة النظر البروتستانتية تحديداً هو الموازاة اللا محدودة لأم الإله مع الإله، ما ينتج عنه بالضرورة تهديد لتفوق المسيح، وهذا ما لا يمكن للبروتستانتية احتماله على الإطلاق. ونظراً لتشبثها بهذه النقطة، فمن الجليّ أنها قد فشلت في الأخذ بعين الاعتبار ما تمتلئ به تراتيلها من إشارات إلى "العريس الإلهي"، الذي أصبح الآن فجأة دون عروس لها حقوق مساوية لحقوقه. أم هي مجرد مصادفة أن يُفهم "العريس" كمجرد مجاز في حالة سيكولوجيستية؟

كما لا يمكن مضاهاة اتساق منطق الإعلان البابوي، فهو يدع البروتستانتية في خزي من كونها لا تزيد عن أنها "ديانة رجل" بما لا يسمح حتى بتمثيل ميتافيزيقي للمرأة. وبهذا المعنى، فهي تشابه الميثراوية(214) "Mithraism، التي اكتشفت لاحقاً أن هذا التحامل على المرأة لم يكن في صالحها. من الواضح أن البروتستانتية لم تعر انتباهاً كافياً إلى دلالات الأزمنة التي تشير إلى المساواة مع المرأة، لكن هذه المساواة تتطلب أن يتم إرساءها ميتافيزيقياً في شكل المرأة "الإلهية" أي عروس المسيح. تماماً كما لا يمكن استبدال مؤسسة ما بشخص المسيح، كذلك لا يمكن استبدال العروس بالكنيسة. فالمؤنث يتطلب، كما يفعل المذكر، تمثيلاً شخصانياً مساوياً.

وبكل الأحوال، فإن عقيدة الصعود لا تعني، تبعاً لوجهة النظر الدوغمائية، أن مريم العذراء قد حصلت على مكانة إلهة، على الرغم من أنها وظيفياً، وبصفتها سيدة السماء ووسيطة (في مقابل الشيطان أمير مملكة الهواء وما دون القمر)، تقف في موقف واحد مع المسيح بصفته الملك والوسيط. وبجميع الأحوال فإن مكانتها تُرضي الحاجة إلى النموذج البدئي.

إن العقيدة الجديدة تعبر عن أمل متجدد لتحقيق التوق إلى السلام، هذا التوق الذي يعتمل في أعماق الروح، كما أنها تتطلع إلى إنهاء إحلال التوتر الخطِر ما بين الأضداد. ونحن جميعاً نسهم في هذا التوتر، ونحن جميعاً نختبره بشكل من أشكال القلق الفردي، وكلما ازداد قلقنا، ضعفت رؤيتنا لاحتمالية التخلص منه بالوسائل العقلانية. وبالتالي، لا عجب أن يظهر الأمل، أي انتظار التدخل الإلهي، في اللاوعي الجمعي، وفي الوقت ذاته لدى غالبية الناس.

لقد منح الإعلان البابوي تعبيراً مشجعاً لهذا التوق. لكن، كيف أمكن للبروتستانتية إغفال هذه النقطة بالكامل؟ لا يمكننا تفسير هذا الافتقار للاستيعاب إلاّ بحقيقة أن الرموز العقائدية والاستعارات التوضيحية قد فقدت معناها لصالح عقلانية البروتستانتية. وببعض المعايير، يصحّ هذا الأمر حقاً فيما لقِيَتهُ هذه العقيدة الجديدة من معارضة في أوساط الكنيسة الكاثوليكية ذاتها، أو بالأحرى، انصبّت المعارضة على دوغمائية العقيدة السابقة. وبشكل طبيعي فإن درجة معينة من العقلانية

تناسبت بصورة أفضل مع المشهد البروتستانتي أكثر من المشهد الكاثوليكي. فالكاثوليكية تعطي الحرية والمساحة اللازمتين لرمزية النموذج البدئي التي تطوّرت على مر العقود، بينما تصرّ في الوقت ذاته على المحافظة على شكلها الأصلي، دونما ارتباك في مواجهة الصعوبات الفكرية، واعتراضات العقلانيين. إن الكنيسة الكاثوليكية توضّح بهذه الطريقة شخصيتها الأمومية، كونها تسمح للشجرة بالنمو خارج رحمها لتتطور وفقاً لقوانينها الخاصة. وعلى وجه النقيض من ذلك، فإن البروتستانتية ملتزمة بالروح الأبوية. فهي لم تتطور منذ البدء من مواجهة مع الروح الدنيوية فحسب، بل إنها تستمر بهذه الجدلية مع التيارات الروحانية في كل عصر. إذ أن الروح، بطبيعتها الهوائية الأصلية، هي مرنة دائبة الحركة، فتشابه النار حيناً والهواء حيناً آخر. لكن إذا ما غالت في خضوعها إلى روح العصر، فإنها قد تغادر موطنها الأصلي، أو ربما تتوه وتضل. ولكي تتمكن من تحقيق مهمتها، لا بد للروح البروتستانتية من الامتلاء بالقلق والانزعاج أحياناً، بل قد تكون ثورية أيضاً، لعلها توقن أن للتقليد أثراً على تغيير القيم المعاصرة. فالصدمات التي تتلقاها أثناء هذا الصراع تعدّل في التقليد وتملؤه حياة. وبدون هذه الإزعاجات قد يصل التقليد بتطوره البطيء عبر القرون إلى التحجر الكامل، وبالتالي يفقد تأثيره. ولئن انتقدت البروتستانتية تطورات معينة في الكنيسة الكاثوليكية وشنّت حرباً عليها، فإنها ما كانت لتستفيد سوى بتحقيق بعض الحيوية، هذا إن لم تبق واعية لحقيقة أن المسيحية تتألف من المعسكرين المنفصلين، أو من التوأمين، الأخ والأخت، اللذين تمت تفرقتهما. ولا تنسى البروتستانتية أنه إلى جانب دفاعها عن وجودها، فلا بد لها من الاعتراف بحق الكاثوليكية في الوجود أيضاً. فالأخ الذي يرغب، ولأسباب لاهوتية، بقطع أسباب الحياة عن أخته الكبرى يمكننا أن ننعته بوصف "اللا إنساني"، طبعاً إن لم نتحدث عن الإحسان المسيحي، والعكس صحيح كذلك. فلا يمكن تحقيق شيء بالنقد السلبي فحسب، إذ يمكن تبرير النقد إلى حد كونه خلّاقاً. لذلك أرى أنه من النافع للبروتستانتية، على سبيل المثال، الاعتراف بأنها أصيبت بصدمة جراء العقيدة الجديدة، ليس لأنها تلقي بضوء يقلقها على الفجوة ما بين الأخ وأخته، بل أيضاً، ولأسباب جوهرية، بسبب تطوّر وضع جديد ضمن المسيحية يبعدها أكثر من ذي قبل عن فُلك الفهم الدنيوي. ولعلّ البروتستانتية تعرف، أو تمكنت من أن تعرف، إلى أي حد تدين بوجودها إلى الكنيسة الكاثوليكية. لكن ألن يبقى النزر القليل للبروتستانتي إذا ما تخلى عن نقده واحتجاجاته؟

أما فيما يتعلق بالفضيحة الفكرية المتمثلة بالعقيدة الجديدة، فعليه أن يذكّر نفسه بمسؤوليته المسيحية: "هل أنا رقيب على أخي (أو في هذه الحالة: هل أنا رقيب على أختي؟"، وأن يبحث بكل جدية عن الأسباب الصريحة والضمنية، أو سواهما، التي كانت خلف الإعلان عن العقيدة الجديدة. وعندما يفعل هذا الأمر، ما عليه سوى أن يحذر الشتائم الرخيصة. وبالتالي فإنه سيحسن صنعاً إذا ما افترض أن فيها أكثر من التعسفية البابوية، كذلك سيكون من المحبّذ بالنسبة للبروتستانتي أن يستوعب أن هذه العقيدة الجديدة قد ألقت عليه مسؤولية جديدة تجاه روح عصرنا الدنيوية، إذ لم يعد بمقدوره التنكر، وبكل بساطة، لأخته الإشكالية على مرأى أعين العالم.

إذا كان البروتستانتي لا يسعى إلى فقدان احترامه لذاته، فإن عليه إذن أن يكون منصفاً لأخته، حتى وإن كان يجد هذا الأمر بغيضاً. وستكون هذه فرصة محبّذة له ليسأل نفسه، على سبيل التغيير مثلاً، ليس عن معنى هذه العقيدة الجديدة فحسب، بل وعن كافة التوكيدات العقائدية بمعزل عن معانيها المجردة الحرفية. ولو أنه يتفكّر بما آلت إليه عقائده من استبدادية وتلوّن، إضافة إلى حالة

الشقاق والاضطراب التي تمر بها الكنيسة، فإنه لن يحتمل أن يبقى على جموده وتصلّبه أمام روح العصر. وتزامناً مع التزاماته تجاه روح العصر، فإنه معني أكثر بالتواؤم مع العالم وأفكاره أكثر من تواؤمه مع الله. وستكون هنا الدلالة واضحة على أن عليه أن ينبري بالكامل إلى مهمته الكبرى بإعادة تأويل كافة التقاليد المسيحية، والتي هي في هذه المناسبة مسألة دخول أم الله إلى مخدع الزوجية السماوي. ولو كانت المسألة مجرد مسألة الحقائق الراسخة في أعماق الروح، وحيث لا يمكن لأحد يمتلك ذرة حكمة الارتياب في هذا الأمر، لكان التوصل إلى حل هذه المهمة ممكناً جداً. لذلك فنحن بحاجة إلى حرية الروح، وهو الأمر الوحيد الذي تقوم البروتستانتية بالتأكيد عليه، في حدود معرفتنا.

تشكل عقيدة الصعود صفعة على الوجه مقارنة بالنظرة التأريخية والعقلانية للعالم، وكانت ستبقى كذلك على مر الأزمان لو لم يصرّ الإنسان، وبعناد، على جدالات العقل والتاريخ. ولئن كانت توجد حالة مثالية للتعبير عن هذا الأمر، فتلك هي حتماً، حيث توجد حاجة للفهم السيكولوجي. فالأسطورة التأسيسية تتكشف بجلاء إلى حد يتوجب علينا فيه أن نتعامى عنها عمداً، إن لم نكن نرى طبيعتها الرمزية وتأويلها بمصطلحات رمزية.

تشير عقيدة صعود مريم إلى الزواج الإلهي في حالة الملء، وقد سبق أن قلنا في هذا الصدد، أن الولادة المستقبلية للطفل الإلهي، والذي سينزع بدوره إلى التجسد بنزعة إلهية، سيكون مقرها في الإنسان التجريبي. إن السياق الميتافيزيقي معروف بالنسبة للاوعي السيكولوجية على أنه "سياق التمايز". وإلى اليوم فإن هذه العملية تتخذ سياقها بشكل لا واعٍ، كما فعلت منذ الأزل، ولا يعني هذا الأمر أكثر من أن الفسيلة ستصبح بلوطة، والعجل ثوراً، والولد رجلاً. لكن إن اتخذت عملية التمايز بشكل واعٍ، فلا بد للوعي من مواجهة اللاوعي، وبالتالي لا بد من تحقيق التوازن ما بين الأضداد. ونظراً لاستحالة حدوث هذه العملية بشكل منطقي، فعلى المرء الاعتماد على الرموز التي تجعل من الاتحاد اللاعقلاني للأضداد أمراً ممكناً.

تُنتَج هذه الرموز بصورة عفوية من اللاوعي، ثم يقوم العقل الواعي بتوصيفها. إن الرموز الرئيسية لهذه العملية تصف النفس، التي هي كليّة الإنسان. فهي من ناحية تتألف مما لديه في الوعي، ومن ناحية أخرى تتألف من محتويات اللاوعي. إن النفس هي الإنسان الكامل، ورموزه هي الطفل الإلهي ومرادفاته. كل هذا هو مجرد مخطط موجز للسياق، لكن يمكن ملاحظته لدى الإنسان المعاصر في كل وقت، أو بمقدورنا قراءة ما كتب حوله في وثائق الفلسفة الهرمسية في العصور الوسطى. أما التوازن ما بين الرموز فهو أمر مذهل لأي امرئٍ يعرف سيكولوجية اللاوعي والخيمياء.

إن الفرق ما بين سياق التمايز الطبيعي، والذي يتم بطريقة لا واعية، وبين ذاك التمايز الذي يعيه المرء، لهو فرق شاسع. ففي الحالة الأولى، لا يوجد متسع لتدخّل الوعي، لتبقى النهاية معتمة كما هي البداية. أما في الحالة الثانية فهنالك الكثير من العتمة التي تنكشف للنور، بحيث أن الشخصية يتخللها النور، وبالتالي يكتسب اللاوعي بالضرورة الإدراك والبصيرة.

يجب أن تضمن هذه المواجهة ما بين الوعي واللاوعي أن النور الذي يشع في العتمة لا ينبثق من العتمة فحسب، بل يحيط بها أيضاً. إن ابن الشمس والقمر هو رمز الاتحاد بين الأضداد، هذا بالإضافة إلى كونه الدافع لاتحادهما. هو مبتدأ هذا السياق ومنتهاه، هو الوسيط والواسطة. يقول

الخيميائيون إن "له ألف اسم"، بمعنى أنه المصدر الذي ينبثق عنه سياق التمايز الفردي والهدف الذي يسعى إليه، لا اسم له، ولا وصف.

فقط من خلال النفس يمكننا أن نبرهن على أن الله يعمل فينا، لكننا غير قادرين على التمييز فيما إذا كانت هذه الأعمال منبثقة من الله أم من لاوعينا. ليس بمقدورنا معرفة ما إن كان الله واللاوعي هما كينونتان مختلفتان، فكلاهما عبارة عن أفكار على خط الحدود لمفهوم ما ورائي. لكن ما يمكننا تثبيته تجريبياً، وبدرجة كافية من الاحتمال، هو ما يوجد في اللاوعي من نموذج بدئي للكليّة يتجلّى بشكل عفوي في الأحلام، ووجود النزوع المستقل في إرادة الوعي لتوصيل نماذج بدئية أخرى مع المركز. وبالنتيجة، فلا يبدو من غير المرجح أن يحتل النموذج البدئي للكليّة مثل هذا الموقع المركزي، والذي يشابه صورة الله.

ويعزز الشبه بالحقيقة المحددة بأن النموذج البدئي ينتج رمزية لطالما ميّزت الألوهة وعبّرت عنها. وتجعل هذه الحقائق بعضاً من مؤهلات نظريتنا المذكورة أعلاه فيما يتعلق بالتمييز ما بين الله واللاوعي، ممكنة. وتحديداً عندما نتناول مسألة صورة الله التي لا تتداخل مع اللاوعي في العموم، بل بمضامين محددة منها، أسمّي منها هنا النموذج البدئي للنفس. إنه هذا النموذج البدئي الذي لم يعد بإمكاننا تمييزه عن صورة الله تجريبياً. بإمكاننا الافتراض اعتباطياً بالفرق ما بين هاتين الكينونتين، لكن هذا لا يساعدنا هنا البتة. بل على العكس، إنه يساعدنا على التفريق ما بين الإنسان والله، ومنع الله من أن يصبح إنساناً. من المؤكد أن الدين على حق عندما يدمغ عقل الإنسان وقلبه بفكرة أن "الله بعيد إلى ما لا نهاية" و"لا يمكن الارتقاء إليه"، ثم في الوقت ذاته يعلّمه بـ "مدى اقتراب الله"، و"حضوره المباشر معه"، وإن هذا الاقتراب هو فقط ما يجب أن يكون حقيقياً وتجريبياً، إن لم يكن سيفقد كافة دلالاته. من ناحيتي فأنا أعترف فقط بما يمكنه أن "يفعل بي" بأنه حقيقي وفاعل، أما ما ليس له تأثير علي فربما لا يكون موجوداً. إن الحاجة الدينية تتوق إلى الكليّة، وبالتالي تتمسك بصور الكليّة التي يعرضها اللاوعي، والتي تظهر من أعماق طبيعتنا السيكولوجية بصورة مستقلة عن العقل الواعي.

XX

ربما أصبحت الصورة أكثر وضوحاً للقارئ بعد الإبانات التي قدمتها عن تطور الكينونات الرمزية المتوافقة مع سياق التمايز للوعي الإنساني. لكن كما بيّنت في المقدمة فإن النماذج البدئية المعنية ليست مجرد مواضيع للعقل، إنما هي أيضاً عوامل مستقلة، أي إنها ذوات حية. ويمكن أن يُفهم تمايز الوعي على أنه أثر من تداخل ديناميكيات ظرفية ماورائية. وفي هذه الحالة، ستكون النماذج البدئية هي التي تُنجز التحول الأولي.

ولكن نظراً لعدم وجود حالات سيكولوجية، من ضمن خبرتي العملية، يمكن مراقبتها وفحصها بعمق خارج الكائن البشري، فليس من الممكن البحث في النماذج البدئية بعيداً عن تفاعلها مع الوعي المراقَب. وبالتالي لا يمكن أبداً الإجابة على السؤال: من الذي يُطلق سياق التمايز: الوعي، أم النموذج البدئي؟ فإن لم يقم المرء، وبشكل متناقض مع الخبرة العملية، بسلب النموذج البدئي من استقلاليته، أو بالحطّ من مكانة الوعي ليصبح مجرد آلة، فإننا سنجد أنفسنا في وفاق تام مع الخبرة السيكولوجية، إنْ منحنا النموذج البدئي معياراً معيناً من الاستقلالية، وللوعي درجة معينة من الحرية الخلاّقة متناسبة مع إطاره.

عندئذ ينشأ فعل تبادلي ما بين عاملين مستقلين إلى حد ما، وهذا ما يضطرنا عندما نصف ونشرح السياقات، مرة إلى تقديم أحد العاملين على الآخر، وفي مرة أخرى نقدّم ثانيهما على الأول، وذلك تبعاً للذات الفاعلة بينهما، بما في ذلك عندما يصبح الله إنساناً. وإلى الآن، بقي الحل المسيحي يتجنب هذه الصعوبة في الاعتراف بالمسيح على أنه الإنسان – الإله الوحيد والفريد. لكن إقامة الروح القدس في الإنسان، حيث أنه الشخص الإلهي الثالث، يستدعي جعل أشخاص كثر مسيحيين. وبذا يظهر السؤال: هل صار كل هؤلاء الآن بشراً ـ آلهة بالكامل؟ حريٌّ بتحولٍ كهذا أن يُفضي إلى صدامات فيما بينهم لا يمكنهم تحملها، هذا إن لم نتحدث عن تضخمٍ لا يمكن للإنسان الفاني العادي، الذي لم يتحرر بعد من الخطيئة الأصلية، ألاّ يخضع له.

في مثل هذه الظروف، من الحسن تذكير أنفسنا بالقديس بولس ووعيه المنقسم: فمن ناحية أحسّ بولس بأنه الرسول الذي ناداه الله مباشرة وأنار قلبه. ومن ناحية أخرى، أحس بأنه إنسان خاطئ ليس بمقدوره اقتلاع الـ "شوكة في الجسد"، وإنقاذ نفسه من الملاك الشيطاني الذي عذبه. وهذا يعني، أنه حتى الإنسان المتنوّر يبقى على ما هو عليه، ولا يمكنه تجاوز "أناه" المحدودة أمام الإله الذي يقيم فيه، ولا يعرف شكله حدوداً، وليست هذه الحدود هي الهاويات في الأرض ولا السماوات الواسعة

الهوامش

(1). رسالة إلى وارتر أوهسادل في 6 شباط/فبراير 1952. من سي. جي. يونغ: الرسائل: اختيار وتحرير غيرهارد أدلر بالتعاون مع آنيا جافيه (جزأين، برينستون ولندن، 1973-74) وكذلك هما الاقتباسان التاليان.

(2). رسالة إلى آنيا جافيه في 18 تموز/يوليو 1951.

(3). كُتب هذا التمهيد في الأصل كرسالة (بالإنجليزية) موجهة إلى سيمون دونيجير Simon Doniger محرر باستورال سيكولوجي Pastoral Psychology، في تشرين الثاني/نوفمبر 1955. وأثناء تحرير "الرسائل" اكتُشِف أن التقديم الذي نُشر قد حذف عبارة هامة. وقد تمت إعادة هذا الحذف الآن، وهو عبارة عن الجملة الثانية من المقطع الرابع، وهو: "إن السؤال الحاسم المتعلق بـ "أين الشر؟" يشكل لحظة الانحراف بالنسبة للنظرية المسيحية عن الخلاص.

(4). ماني: مؤسس الديانة المانيشية وهي ديانة شرق أوسطية، وتُظهر تأثراً واضحاً بالزرادشتية والمسيحية والبوذية. ولد في بابل – العراق في عام 216 عرف الوحي مذ كان في الثانية عشرة من عمره – المترجمة.

(5). ترتوليان محامٍ كبير من أهل قرطاجنة, عاش في القرنين الثاني والثالث للميلاد، اعتنق المسيحية وسيم كاهناً فانصرف إلى التأليف في الدين. ومن أقواله الشهيرة: "أي علاقة توجد بين أثينا وأورشليم, بين الأكاديمية والكنيسة، بين الخوارج والمؤمنين؟ إننا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطونية أو جدلية. بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء". انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط, ص16-17، بيروت 1979 م.

(6). سفر أيوب 40: 5 لقد استخدم يونغ نسخة التوراة Zürcher Bibel (ZB)، لكننا استخدمنا الترجمة العربية للكتاب المقدس المطبوعة في القاهرة عام 1938 بإشراف جمعية التوراة الأمريكية وجمعية التوراة البريطانية والأجنبية. م.

(7). سفر أيوب 9: 2.

(8). سفر أيوب 9: 16.

(9). سفر أيوب 9: 19.

(10). سفر أيوب 9: 17.

(11). سفر أيوب 9: 22.

(12). سفر أيوب 9: 23 .

(13). سفر أيوب 9: 28-29 .

(14). سفر أيوب 9: 30-31.

(15). سفر أيوب 9: 32.

(16). سفر أيوب 10: 7.

(17). سفر أيوب 13: 3.

(18). سفر أيوب 13: 15.

(19). سفر أيوب 13: 18

(20). سفر أيوب 13: 25.

(21). سفر أيوب 19: 6-7.

(22). سفر أيوب 27: 2.

(23). سفر أيوب 27: 5-6.

(24). سفر أيوب 34: 12.

(25). سفر أيوب 34: 18.

(26). سفر أيوب 34: 19.

(27). سفر أيوب 16: 19-21

(28). سفر أيوب 19: 25.

(29). المزمور 89: 28- 34- 35.

(30). المزمور 89: 46- 47- 49.

(31). الغنوصية Gnostic: جاءت التسمية من الكلمة اليونانية الغنوص Gnosis وتعني المعرفة. وهي حركة دينية وفلسفية ازدهرت في القرنين الأول والثاني للميلاد – المترجمة.

(32). سفر زكريا 4: 10.

(33). من أسماء الله في العهد القديم: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، شركة ماستر ميديا، القاهرة مصر© 1997.

(34). كارل لامبرخت 1856 – 1915، مؤرخ ألماني، طالب بكتابة التاريخ على نمط جديد يقوم على الاتجاهات الاجتماعية والثقافية والنفسية – المترجمة.

(35). ينسب المزمور التاسع والثمانون إلى داود، ومن المفترض أنه نشيد جماعي كُتب في السبي.

(36). يحتمل أن الشيطان هو إحدى أعين الله التي "تجول في الأرض وتتمشى فيها" (سفر أيوب 1: 7). وفي التقليد الفارسي انبثق "أهرمن" من أفكار "هرمز" الارتيابية.

(37). سفر أيوب 40: 80- 9.

(38). سفر أيوب 40: 12- 14.

(39). يوجد هذا التلميح أيضاً في مرحلة تالية من "فلسفة الكابالا". [هذه (الشظايا) Shards, وتدعى أيضاً بـ (القواقع) Shells (بالعبرية: كليفوت Kelipot) تشكل عشرة أضداد في مقابل (السفيروت) Sefiroth العشرة، وهي المراحل العشر لتجلّي قدرة الله المبدعة. والشظايا، التي تمثل قوى الشر والظلام، كانت في الأصل مزيجاً مع نور السفيروت، والظُهار Zohar، يعتبِر الشر ناتجاً ثانوياً من سياق حياة السفيروت. وقد حدث هذا العزل للشظايا فيما يوصف في الكتابات الكابالية ـ لا سيما لوريا ومدرسته ـ بـ "كسر الأواني"، وبهذه الطريقة تتخذ قوى الشر لنفسها وجوداً منفصلاً وحقيقياً. ج. شرليم، "الاتجاهات الكبرى في الصوفية اليهودية"، القدس 1941، ص 267.].

(40). سفر أيوب 42:2.

(41). سفر أيوب 42: 3- 6.

(42). سفر أيوب 41: 34.

(43). سفر حزقيال 1: 26.

(44). ينبغي اعتبار الافتراض الساذج بأن يهوه كائن واعياً تحيزاً مفجعاً كان سبباً في حالات من اضطراب المنطق يصعب تصديقها. فمثلاً لم يكن ثمة ضرورة لعقيدة "الخير المطلق" لو أننا لم نفترض مسبقاً أنه يستحيل على إله واع طيب أن يقترف أفعالاً شريرة. في حين يتيح لنا الافتراض بأن ليهوه لاوعيه، وأنه يفتقر إلى التأمل، أن نكوّن مفهوماً عنه يضع أفعاله خارج الاعتبار الأخلاقي، ولا يفسح مجالاً لقيام نزاع بين الخير والشر. (المؤلف)

(45). سفر أيوب 42: 7.

(46). Moira: في الميثولوجيا اليونانية تعني قدر الإنسان، أو أحد الأقدار الثلاثة التي تقدّر للإنسان. و Dike: بالميثولوجيا اليونانية هي روح العدالة أو التراتبية الأخلاقية تبعاً للقوانين الاجتماعية، وباللغة الإنجليزية هي العدالة – المترجمة.

(47). تأويل غنوصي لـ يهوه على أنه Saturn-Iaidabaoth في كتاب "تحول الرمزية في القدّاس" فقرة: 350، أيون، فقرة: 128- المحرر.

(48). الحكمة وبالتحديد حكمة الآلهة (وليست آلهة الحكمة) لدى الإغريق – المترجمة.

(49). حكمة الله باللاتينية – المترجمة.

(50). سفر الأمثال 8: 22- 24، 27، 29-31.

(51). الحكمة بالعبرية – المترجمة.

(52). قوة الخلق الإلهية المؤنثة لدى الهندوسية – المترجمة.

(53). سفر يشوع بن سيراخ 24: 5 -31 أو الكنسي، مُعتمد لدى الكنيسة الكاثوليكية، في حين أنه غير معتمد لدى البروتستانت. اعتمدنا في ترجمة الفقرات الواردة من طبعة الكتاب المقدس العربية المطبوعة عام 1960 بيروت. م.

(54). اللوغوس من أكثر الكلمات غموضاً واستخداماً في الفكر الغربي الديني والفلسفي، تتنوع معانيها ما بين: الكلمة، الحكمة، ابن الله، أو مساوٍ لله والابن – المترجمة.

(55). بالعبرية تعني: الروح، الريح، الهواء، النفَس – المترجمة.

(56). سفر صموئيل الثاني 5: 23.

(57). سفر نشيد الإنشاد 4: 8.

(58). سفر نشيد الإنشاد 4: 13-15.

(59). سفر نشيد الإنشاد 5: 5.

(60). الفارقليط: كلمة يونانية تعني باليونانية: المعين، وفي العهد الجديد تشير الكلمة إلى الروح القدس في المسيحية – المترجمة -

(61). سفر حكمة سليمان غير معتمد لدى الكنيسة البروتستانتية, في حين أنه معتمد لدى الكنيسة الكاثوليكية. وقد نقلنا الفقرات التي استشهد بها المؤلف من الطبعة العربية, بيروت 1960. م.

(62). أبوكريفا Apocrypha كلمة يونانية تعني المخفي أو السري، وفي السياق الديني تستخدم حصراً للنصوص الدينية غير المعترف بها من قبل كافة المحافل الدينية، مثل بعض الأسفار – المترجمة.

(63). سفر حكمة سليمان 1: 6.

(64). سفر حكمة سليمان 7: 23.

(65). سفر حكمة سليمان 7: 21.

(66). سفر حكمة سليمان 7: 22.

(67). سفر حكمة سليمان 7: 25.

(68). سفر حكمة سليمان 7: 26.

(69). سفر حكمة سليمان 7: 24.

(70). سفر حكمة سليمان 8: 3.

(71). سفر حكمة سليمان 8: 6.

(72). سفر حكمة سليمان 9: 10-17.

(73). سفر حكمة سليمان 6: 18 و 8: 13.

(74). سفر حكمة سليمان 1: 15-16.

(75). سفر حكمة سليمان 2: 10- 19.

(76). سفر أيوب 2: 3.

(77). سفر الجامعة 9: 16.

(78). باللاتينية تعني القوة أو السلطة، وقد ظهرت في نصوص دينية مسيحية بمعنى يرتبط بالروح القدس أو بالملاك في نصوص توراتية – المترجمة.

(79). إن تلك الفئة من البشرية غير مدموغة بالألوهية، والمفترض أنها تتحدر من إنسان ما قبل آدمي – المحرر.

(80). Tohubohu مصطلح من التوراة ويعني الفوضى، الأرض اليباب، الخواء – المترجمة.

(81). بحسب ما يراه فيلو الإسكندري. (المؤلف).

(82). مصطلح فلسفي ـ المترجمة.

(83). Pleromatic: الفكرة الغنوصية عن العالم الروحاني، متمثلة بالامتلاء بالروح القدس – المترجمة.

(84). البوذية – التيبت: ما بين حالتين: حالة الروح بعد الموت وقبل العودة إلى الحياة – المترجمة.

(85). من ملاحظات يونغ على "كتاب التيبت حول الأموات" – المحرر.

(86). في أمثولة الوكيل الخائن (إنجيل لوقا: 16: 8 المصدر نفسه).

(87). إله الحب في الميثيولوجيا الإغريقية، ومقابله في الرومانية هو كيوبيد، والإيروسية مصطلح يستخدم للتعبير عن الحب الشهواني – المترجمة.

(88). سفر أيوب: 28:12: "أما الحكمة فمن أين توجد وأين هو مكان الفهم". ليس هنالك من فرق، سواء تم إقحام هذه الفقرة لاحقاً أم لا.

(89). Hieros Gamos باليونانية زواج الآلهة، حيث يحضر الشعائر البشر – المترجمة.

(90). سفر التكوين 3:15 (المصدر نفسه).

(91). اصطلاح أعاد يونغ إحياءه واستخدامه ويشير به تحديداً إلى فعل اللاوعي ضد رغبات العقل الواعي – المترجمة.

(92). إنجيل يوحنا 1: 3 "به تكوّن كل شيء، وبغيره لم يتكوّن أي شيء مما تكوّن.

(93). سفر الأمثال 8: 29-30 (المصدر نفسه).

(94). سفر أيوب 40: 15، 19 (المصدر نفسه).

(95). في التقليد المسيحي هنالك اعتقاد بأن الشيطان كان قد علم منذ قرون بنيّة الله أن يصير إنساناً, مما حداه إلى زرع أسطورة ديونيسوس بين الإغريق لكي يتمكنوا من القول لما جاءتهم الأنباء السارّة (البشارة بمولد المسيح) فعلاً: (أنباء تافهة! لقد كنا نعلم بها من قبل...). ولما اكتشف الإسبان الفاتحون في وقت لاحق صلبان قبائل المايا في «يوقاطان» Yucatan اصطنع أساقفة الإسبان نفس الحجة! (المؤلف)

(96). وهي حالة نفسية يشعر فيها الإنسان أنه قد اختبر من قبل التجربة التي يخوضها الآن – المترجمة.

(97). هي أناجيل متّى ومرقس ولوقا، وجاءت تسميتها من عدم اختلافها إلا في جزئيات يسيرة، بخلاف إنجيل يوحنّا – المترجمة.

(98). يوحنا 14:6 (المصدر نفسه).

(99). مرقس 3:21 (المصدر نفسه).

(100). مرقس 10:18 (المصدر نفسه).

(101). سفر الرؤيا 7:4 (المصدر نفسه).

(102). سفر الرؤيا 19:20 (المصدر نفسه).

(103). يوحنا 14:12 (المصدر نفسه).

(104). يوحنا 10:34 (المصدر نفسه).

(105). رومية 8:17 (المصدر نفسه).

(106). يوحنا 14:16 (المصدر نفسه).

(107). يوحنا 14:2 و 16:13 (المصدر نفسه).

(108). أعمال 14:11 (المصدر نفسه).

(109). أبولو جيتيكا 11.

(110). رسالة يوحنا الأولى 1:4.

(111). الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 4:2

(112). متّى 29:26.

(113). ابراهيم وإسحق.

(114). حدثت الرؤية التي تلقى فيها حزقيال دعوته سنة 592 ق.م.

(115). من الخطأ أن نذهب إلى أن الرؤى، والأمر كذلك، ظاهرة مرضية، إذ إنها تحصل للأسوياء ولئن كانت لا تتكرر كثيراً، فهي ليست نادرة على كل حال.

(116). حزقيال 26:1.

(117). دانيال 13:7.

(118). تكوين 3:6.

(119). أخنوخ 2:7.

(120). أخنوخ 5:9 - 11.

(121). أخنوخ 2:22.

(122). المندلة Mandala كلمة سنسكريتية تعني الدائرة، وهي ذات دلالة شعائرية ودينية في البوذية والهندوسية – المترجمة.

(123). أخنوخ (7:40).

(124). بالعودة إلى الإصحاح 87 من سفر نجد أربعة "كائنات يشبهون رجالاً بيضاً، أمسك ثلاثة منهم بأخنوخ من يده، بينما تناول الرابع نجماً وقضف به في الهاوية".

(125). أخنوخ 46:1-3.

(126). أخنوخ 47:4.

(127). أخنوخ 48:1.

(128). جهنم هنا مرادفة لشيؤول

(129). أخنوخ51:1,3.

(130). أخنوخ 6:54. وهنا نسمع أيضاً بأن هجرة مائتي ملاك كانت من إيحاء الشيطان.

(131). أخنوخ 58:6.

(132). أخنوخ 60:10.

(133). أخنوخ 71:5-6.

(134). أخنوخ 71:14.

(135). أخنوخ 71:17.

(136). اختار مؤلف (سفر أخنوخ) الابن السابع لآدم (أخنوخ بن يارد) بطلاً لقصته، سار مع الله، ولم يمت، بل اختفى، أي إن الله نقله إليه: (ولم يوجد لأن الله أخذه ـ تكوين 24:59).

(137). يوب 25:19.

(138). المسيحانية هي عودة المسيح في آخر الزمان، ونظيرها الإسلامي هو ظهور المهدي - المترجمة.

(139). تختلف مريم العذراء عن باقي المخلوقات الفانية نتيجة لحملها من دون دنس، ويتم التوكيد على هذه الحقيقة بصعودها إلى السماء.

(140). من المحتمل أنها نجمة الصبح (يرجع إلى الرؤيا28:2 و 16:22)، إنها كوكب الزهرة بدلالاته السيكولوجية، وليس كما يذهب الظن، أنه أحد من الآثَمَيْن: زحل والمريخ.

(141). يوحنا 14:12.

(142). يوحنا 35:10.

(143). لوقا: 16 :1- 3.

(144). الرسالة الأولى 5:1.

(145). الرسالة الأولى 1:2-2.

(146). الرسالة الأولى 3:9.

(147). الرسالة الأولى 2: 18و 4:3.

(148). الرؤيا 1: 16-17.

(149). الرؤيا 2:5.

(150). الرؤيا 2:20 وما بعد.

(151). الرؤيا 3:3.

(152). الرؤيا 3:19.

(153). لاوديكيا كنيسة وجدت في الأيام الأولى للمسيحية، يعتقد أنها في جنوب غرب تركيا في مدينة لاوديكيا التاريخية – المترجمة.

(154). الرؤيا 4:19.

(155). الرؤيا 4:6 وما بعد.

(156). إشارة إلى نورانية النماذج البدائية، يونغ، "في طبيعة الروح" – المحرر.

(157). الرؤيا 5:6

(158). الرؤيا 6:10.

(159). الرؤيا 16:17.

(160). الرؤيا 12:1.

(161). الرؤيا 11:19.

(162). الرؤيا: 5:12.

(163). الرؤيا 12: 19.

(164). يحتمل جداً أن يكون يوحنا قد عرف أسطورة «ليتو» واستخدمها بصورة واعية. لكن البعيد عن الاحتمال أن يستخدم لاوعيه خافيته هذه الأسطورة الوثنية لوصف ميلاد المسيح - المؤلف.

(165). Purusha روح الإنسان التي تنتشر في الكون: في الهندوسية – المترجمة.

(166). جوهر الإنسان في الفلسفة الهندية – المترجمة.

(167). الرؤيا 12: 16.

(168). يرجع إلى ماري لويز فون فرانتس Die Passio Perpetuae acontribution to junges Aion Zurich; 1951

(169). ينطبق "الابن" على الابن العاقل filus Sapientiae المعروف في مصطلح السيمياء الوسيطة.

(170). الرؤيا 14: 1 لعل من الأمور الهامة ألا يكون بعد الآن حديث عن "جمع كثير لم يستطع أحد أن يعدو من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف" مما جاء في ذكره 7: 9

(171). الرؤيا 14: 4.

(172). هم في الحقيقة أتباع عبادة "الأم العظمى" لأنهم ينطبقون على خصيان غالي Galli. قارن هذا بالمقطع الغريب الوارد في إنجيل متى 19: 12 عن الذين "خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات" مثل كهنة كيبيل الذين كانوا يجبّون أنفسهم تكريماً لابنها أتيس. ـ المؤلف.

(173). رئيس الشياطين – المترجمة.

(174). يرجع أيضاً إلى 19: 5 من سفر الرؤيا .

(175). الرؤيا 14: 14 و17 ربما كان هذا الملك يوحنا نفسه.

(176). الرؤيا 14: 19 - 20.

(177). الرؤيا 15: 6 - 7 و16: ومايليها.

(178). 18: 22- 23.

(179). الرؤيا 18: 20.

(180). الرؤيا 19: 15.

(181). الرؤيا 19: 13.

(182). الرؤيا 19: 11. هنا ترد أيضاً نبوءات فلكية عن النصف الثاني من الدهر المسيحي الذي ظهر فيه "فيساغوس" صنواً مضاداً لـ "أكواريوس".

(183). الرؤيا 20: 3.

(184). 20: 10 و21: 1.

(185) الرؤيا 19: 7.

(186). الرؤيا 21: 2.

(187). الرؤيا 21: 11.

(188). الرؤيا 21: 16 - 27.

(189). الرؤيا 22: 1 - 2.

(190). في الصين, السماء مستديرة والأرض مربعة.

(191). سفر يشوع بن سيراخ أو الكنسي، وهو من أسفار أبوكريفيا غير المتفق عليها – المترجمة.

(192). الكنسي 24: 11 و18.

(193). ترتوليان: "تلك التربة العذراء التي ما رواها الماء ولا أخصبها الرذاذ بعد, منها خلق الإنسان في الأصل, ومنها يولد المسيح الآن, من عذراء من خلال الجسد."

(194). حزقيال 1: 18.

(195). Shekinah الإلهة المؤنثة في اليهودية ؛ وردت في شيفرة دافينشي – المترجمة.

(196). الكابالا مذهب يهودي نشأ في القرن السابع، حالياً يعتنقه بعض المشاهير مثل مادونا، وبيكهام – المترجمة.

(197). ليس من قبيل المصادفة أن يلقب المسيح يوحنا بـ "ابن الرعد".

(198). رسالة يوحنا الأولى 4: 7 - 21.

(199). يعقوب بوهمه Jakob Bőhme 1575- 1624 متصوف ألماني، أسس للصوفية الحديثة، كان متأثراً بجورج فوكس – المترجمة.

(200). سيف ديموقليس: عبارة تستخدم لوصف موقف بالغ الخطورة، وهي عبارة مأخوذة من قصة حول ديموقليس الذي أكل وجبته من الطعام وهنالك سيف مسلط فوقه، والذي كان مربوطاً بشعرة واحدة فقط. من الميثولوجيا اليونانية – المترجمة.

(201). أحرق هيروستراتس هيكل أرتميس في أفسس, عام 365 ق. م طمعاً في خلود اسمه.

(202). اللاأدرية: توجه فلسفي يقول بعدم معرفة وجود الله أم عدم وجوده، وهو يختلف تماماً عن الإلحاد من حيث الوقوف موقف المحايد بخصوص مسألة وجود الله – المترجمة.

(203.). وهي استحالة الخبز والخمر إلى جسد الرب يسوع ودمه الأقدسين بحسب الكنيسة الأرثوذكسية – المترجمة.

(204). الفلسفة الهرمسية: تنسب الفلسفة الهرمسية إلى هرمس والذي يعتقد بأنه النبي إدريس أو أخنوخ. وهي فلسفة لعبت دوراً هاماً في الفكر الهليني المتأخر بالإسكندرية. وهي مجموعة من العقائد والممارسات التي تهدف إلى التأثير في العالم من خلال القوى الإلهية- المترجمة.

(205). يتضمن مفهوم الله, سيكولوجياً, كل فكرة عن المطلق, الأول أو الآخر, الأعلى أو الأدنى, ولا عبرة بالتسميات – المؤلف.

(206). بالنسبة ليونغ فقد استخدم هذا المصطلح تعبيراً عن الاندماج التدريجي وتوحيد الذات من خلال كشف الطبقات المتعاقبة في الصراع السيكولوجي – المترجمة.

(207). يتضمن مفهوم الله, بفكرته الكلية الشاملة, مفهوم اللاوعي أيضاً في مقابل الوعي. ومن هنا فإنه يشتمل على "النفس" ذات الموقف الموضوعي التي غالباً ما تحبط إرادة العقل الواعي وتحول دون بلوغ مقاصده. إن الصلاة, مثلاً تشد من عزم اللاوعي, وهذا يعلل ما تحدثه الصلاة أحياناً من آثار لم تكن في الحسبان ـ المؤلف.

(208). استخدم يونغ الأنيما بمعنى الشخصية الأنثوية داخل لا وعي المذكّر – المترجمة.

(209). مقتطفات من الدستور الرسولي الصادر عن بيوس الثاني عشر (الترجمة وأرقام الفقرات مأخوذة عن نشرة جمعية الحقيقة الكاثوليكية الإرلندية بدوبلن 1950):

22 "العروس التي قد تزوج منها الآب كانت تقيم في مخدع الزوجية السماوي", عن القديس يوحنا الدمشقي.

30 مقارنة بالعروس في نشيد سليمان.

33 "وبطريقة مماثلة ارتفع تابوت العهد الذي قدّسه، عندما ارتفعت في هذا اليوم الأم العذراء إلى مخدع الزوجية السماوي", عن القديس انطوان البادواني.

(210). نفس المرجع 31: "يضاف إلى ذلك أن علماء الدين رأوا أن صعود العذراء, أم الله لم يكن غير ملحوظ في صور مختلفة في العهد القديم, وحسب, وإنما رأوا أنها هي المقصودة في آية المرأة المتسربلة بالشمس التي رآها الرسول في جزيرة بطموس".

(211). إن زواج الخروف يكرر بشارة مريم وصعودها

(212). لوقا: 6:4.

(213). يمكن أن نعزو رفض البابا للرمزية السيكولوجية إلى اهتمامه بواقع الحوادث المتيافيزيقية في المقام الأول، وبسبب من إهمال شأن الروح الذي يشيع في كل مكان، سرعان ما يخامر الناس الظن بأن كل محاولة للتوصل إلى فهم سيكولوجي مكافئ إنما هي من قبيل إخضاع الدين إلى معطيات علم النفس (سيكولوجيزم). فكان بديهياً أن تعمد الدغماطيقا إلى وقاية نفسها من هذا المحذور. في الفيزياء، إذا حاول أحدنا أن يفسر طبيعة الضوء، فإن أحداً لا يتوقع أن تكون النتيجة انعدامه. أما في علم النفس فكل شخص يعتقد أن ما يتولى هذا العلم تفسيره إنما هو تبديد له. ومهما يكن من أمر، فإني لا أرجو لوجهة نظري المنحرفة عن العقيدة الرسمية, أن يعترف بها وسط مختص. ـ المؤلف م.

(214). الميثراوية ديانة قديمة كانت تعبد ميثرا، من بلاد فارس، انتشرت عبر الإمبراطورية اليونانية في الألف الثالثة قبل الميلاد، وتركت آثارها في الديانات التوحيدية اللاحقة – المترجمة.

(سفر أيوب) من العلامات الفارقة في التطور التاريخي للدراما الإلهية. ففي وقت كانت تتم فيه كتابة هذا السفر، كان ثمة الكثير من الشهادات التي تدل على تناقضات صورة "يهوه": هذا الإله اليهودي ذاته هو من اعترف بأن الحنق والغيرة كانا يأكلانه أكلاً، وكان إدراكه لهذه الحقيقة يؤلمه للغاية. لقد جمع يهوه ما بين نفاذ البصيرة والغباء، وما بين الرحمة والقسوة، وما بين القوى الخلاقة والقوى المدمرة. كان كل شيء موجوداً فيه، وما كانت واحدة من تلك الصفات عقبة في وجه الصفة الأخرى. ولا يمكن استيعاب مثل هذه الحالة، إلا عندما لا يوجد لدى متلقيها وعياً متفكّراً بالمطلق، أو عندما تكون قدرته على التفكّر واهية، وهذه حال لا يسعنا إلا أن نصفها بأنها غير أخلاقية.

لقد عرفنا كيف كان شعور أقوام "العهد القديم" حيال إلهها من خلال شهادة "الكتاب المقدس"، وهو ما لستُ بصدده هنا، بل بصدد الطريقة التي يمكن بها لإنسان معاصر، أن يتآلف مع الظلمة الإلهية التي يتكشّف عنها سفر أيوب، وتأثيرها عليه. سوف لن أقدم هنا تفسيراً ملطفاً وحذراً ومنصفاً لكل تفصيل، إنما سأقدم فقط رد فعل ذاتي عفوي. وبأسلوبي هذا، أتمنى أن أكون قد عبرّت عن المشاعر الممزقة التي ينتجها لدينا المشهد الصريح للقساوة والوحشية الإلهيتين.

كارل غ. يونغ

9 789933 477998



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339